

الهلال الخصيب من خلال مذكرات معاصر لورنس العرب أنموذجاً (1909-1935)

مذكرة لنيل شهادة الماستر: تخصص تاريخ الوطن العربي المعاصر

إعداد الطالبة:

إشراف الدكتور:

◀ نسمة زواوي.

◀ د/ إسماعيل تاحي

الاسم	المؤسسة الجامعية	الصفة
أ. د/ فتح الدين بن أزواو	جامعة المسيلة	رئيسا
د/ إسماعيل تاحي	جامعة المسيلة	مشرفا ومقررا
أ. د/ حليم سرحان	جامعة المسيلة	ممتحنا



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and
Student Status

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
نوبة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة
الرقم: 2026/

تصريح شرفي خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

أنا الممضى أدناه:

السيد(ة): زواوي دسيرة

الصفة (طالب، استاذ، باحث، باحثو داتم):

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 2018.75088

الصادرة بتاريخ: 2017/03/16 عن دائرة: أولاد دراج

المسجل بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم: التاريخ

تخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

اسم واللقب دسيرة زواوي تحت رقم التسجيل: 25075100246

والمكلف بإنجاز اعمال بحث (مذكرة كيماس، مذكرة ماستر، مذكرة ماستر، مذكرة ماستر، أطروحة دكتوراه)

عنوانها: الجهل الحديث من خلال مذكرات معاصري لورنس

العرب انحدوا (1909 - 1935)

أصرح بشرفي باتني التزم بالمعايير العلمية والمنهجية ومعايير الاخلاقيات المهنية والنزاهة الاكاديمية المطلوبة في
انجاز البحث المذكور اعلاه

المسيلة في:
امضاء المعنى (ة): [Signature]

تحتوي صندوق ختم توقيع
المعنى
24 MAR 2020
أولاد دسيرة

المرجع: القرار الوزاري رقم 933 المؤرخ في 2016-07-28 المحدد للتواعد المتعلقة بالوقفة من السرقات العلمية ومكافحتها

ع. وزير للتحصيل العلمي
بإتقيض منه ع. وزير للتحصيل العلمي
بإتقيض منه ع. وزير للتحصيل العلمي



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila



Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Dean of the College for Studies and
Student Affairs

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
تجاية العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة

وثيقة ايداع مذكرة ماستر

الموضوع:

الهلال الخصيص من خلال صكوكات معا صرين
لورانس العرب المودجلا (1909 - 1935)

إعداد الطلبة:

1- نرواوي نسمة رقم التسجيل: 25075100245
2- رقم التسجيل:

القسم: تاريخ الشعب: علوم إنسانية التخصص: وطن عرب معا صر
إشراف: د/ تاحي إسماعيل الرتبة: أستاذ محاضر

أقر بأنني تابعت العمل المذكور أعلاه في جلسات إشرافية طويلة الموسم الجامعي: 2025-2026 وأسمح
بإيداعه على مستوى إدارة القسم للمناقشة والتقييم.

رئيس فريق الاختصاص:

موافقة وإمضاء الاستاذ(ة) المشرف(ة):

رئيس القسم:



المسيرة - التاريخ
مكتبة التميز - مهران

شكر وعرفان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتحقق الإنجازات، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

أود في البداية أن أعبر عن بالغ شكري وعظيم امتناني إلى الله عز وجل الذي وفقني وأعانني على إنجاز هذا العمل المتواضع.

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير إلى أستاذي المشرف "د/ إسماعيل تاحي" على هذه المذكرة، الذي لم يخل عليّ بالنصح والتوجيه والإرشاد، وكان لي خير معين وناصح أمين، فله مني كل الاحترام والتقدير والعرفان.

ولا يفوتني أن أشكر أساتذتي الكرام في قسم التاريخ بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الذين ساهموا في تكويني العلمي والمعرفي طوال سنوات دراستي، وأفاضوا عليّ من علمهم وخبراتهم.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني وقدم لي يد العون، سواء بتوفير المراجع والمصادر، أو بتقديم الملاحظات القيمة، أو بكلمة تشجيع ودعم، وخاصة أفراد أسرتي الكريمة الذين كانوا السند والدعم في كل خطواتي.

وأشكر كل من قرأ هذا العمل أو استفاد منه، راجياً أن يكون هذا الجهد المتواضع إضافة علمية نافعة في المكتبة التاريخية العربية.

وأخيراً، أسأل الله التوفيق والقبول، وأن ينفع بهذا العمل كما ينفع عباده الصالحين، إنه سميع مجيب.

إهداء

إلى من علموني أن الحلم يبدأ بكلمة ... وأن النجاح ثمرة الصبر والمثابرة ... إلى من
كانوا نوري في ظلمة الطريق ... والذين علموني أن المعرفة نور والجهل ظلام...
إلى والديّ العزيزين ... اللذين ما انفكا يدعماني ويشجعاني ... وكانا خير سند وعون
في رحلة العلم والمعرفة...

...

إلى إخوتي وأصدقائي ... الذين شاركوني هموم البحث وأفراحه ... وكانوا عوناً لي في
كل خطوة...

إلى كل من آمن بي وساندني ... وساهم ولو بكلمة طيبة في إتمام هذا العمل...
أهدي هذا الجهد المتواضع ... راجياً أن يكون نافعاً ومفيداً ... وأن يوفقني الله دائماً
إلى ما فيه خير وفلاح.

قائمة الاختصارات

تح: تحقيق.

تر: ترجمة.

تع: تعليق.

تق: تقديم.

ج: جزء.

د ت: دون تاريخ النشر.

د د ن: دون دار النشر.

د ب: دون بلد نشر

ص: صفحة.

ص ص: صفحات عديدة متلاحقة.

ع: عدد.

مج: مجلد.

مقدمة

تعتبر منطقة الهلال الخصيب من أهم المناطق الحضارية في تاريخ المشرق العربي، حيث تداخلت فيها الأبعاد الحضارية والجغرافية مع التحولات السياسية الكبرى التي شهدتها المنطقة منذ العصور القديمة وصولاً إلى مطلع القرن العشرين، فقد مثّلت هذه المنطقة التي صاغ تسميتها عالم الآثار الأمريكي جيمس هنري برستد، إطاراً طبيعياً لنشوء الحضارات الأولى، كما تحولت لاحقاً إلى مجال استراتيجي تتقاطع فيه المصالح الدولية والإقليمية، خاصة مع اقتراب انهيار الدولة العثمانية واشتداد التنافس الاستعماري.

وفي هذا السياق برزت شخصيات تاريخية أدت أدواراً محورية في إعادة تشكيل الواقع السياسي للمنطقة، من بينها توماس إدوارد لورانس الذي ارتبط اسمه بالثورة العربية الكبرى وبالاستراتيجية البريطانية في المشرق، فقد جاء ظهوره في لحظة تاريخية حساسة تميزت بصراع القوى الكبرى على النفوذ، وبرزت الحركات القومية العربية الساعية إلى الاستقلال، مما يجعل دراسة سياق ظهوره وفهم خلفياته الفكرية والسياسية أمراً ضرورياً لتحليل طبيعة المرحلة وإدراك أبعادها الحقيقية.

أهداف الدراسة

- تحليل الإطار المفاهيمي والجغرافي للهلال الخصيب وخصائصه الاستراتيجية والسياسية قبيل الحرب العالمية الأولى.
- دراسة ظروف نشأة توماس إدوارد لورانس وتكوينه العلمي والعملية، ورحلاته إلى المشرق العربي.
- رصد دور لورانس في الثورة العربية الكبرى وصلته بالقيادة العربية والبريطانية.
- تحليل صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس من حيث البنية السياسية والاجتماعية والعلاقات القبلية.
- دراسة مسار العمليات العسكرية في الحجاز وبلاد الشام وأثر الثورة على موازين القوى داخل المنطقة.

– الكشف عن أثر التقسيمات الاستعمارية على وحدة الهلال الخصيب من خلال اتفاقية سايكس-بيكو ونظام الانتداب.

أهمية الدراسة

تتحدد أهمية الدراسة في أنها تتناول منطقة الهلال الخصيب كوحدة جيوسياسية وحضارية متكاملة، وتساعد على فهم جذور التحولات السياسية في المشرق العربي عقب انهيار الدولة العثمانية، كما تبرز دور شخصية توماس إدوارد لورانس المحورية والمثيرة للجدل، والتي تجسد تعقيد العلاقة بين الطموحات العربية للاستقلال والمشاريع الاستعمارية البريطانية والفرنسية، وتساهم الدراسة في تسليط الضوء على التناقض بين الوعود البريطانية للعرب والترتيبات الاستعمارية الفعلية (سايكس-بيكو، سان ريمو، نظام الانتداب)، مما يفسر جذور الكثير من الإشكاليات السياسية والصراعات الحدودية المستمرة في المنطقة، كما تقدم نموذجاً منهجياً لتحليل المصادر الأولية (مذكرات لورانس ورسائله) ومقارنتها بالرواية العربية، مما يثري المكتبة التاريخية العربية حول موضوع لم يحظَ بالاهتمام الكافي في الدراسات العربية الشاملة.

حدود البحث

أولاً: الحدود الزمانية.

تمتد الحدود الزمانية لهذه الدراسة من أواخر القرن التاسع عشر (1888م، تاريخ ميلاد توماس إدوارد لورانس) إلى سنة 1935م (تاريخ وفاته)، مع التركيز بشكل أساسي على الفترة الممتدة بين 1909م (رحلته الأولى إلى المشرق) و1922م (انتهاء مرحلة الانتداب الأولى)، مع الإشارة عند الضرورة إلى بعض التطورات اللاحقة.

ثانياً: الحدود المكانية.

تشمل الحدود المكانية للدراسة منطقة الهلال الخصيب بمكوناتها الأساسية: بلاد الشام (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن)، والعراق (بلاد الرافدين)، إضافة إلى شبه الجزيرة العربية

(الحجاز) التي شكلت مسرحاً للثورة العربية الكبرى، مع الإشارة إلى مصر وبريطانيا (مركز القرار الاستعماري) عند الاقتضاء.

أسباب اختيار الموضوع

أولاً: الأسباب الذاتية:

- الرغبة العلمية في دراسة منطقة الهلال الخصيب بوصفها مجالاً للتنافس الدولي ومسرحاً لبروز الفكر القومي العربي.
- الاهتمام بشخصية توماس إدوارد لورانس المثيرة للجدل ودورها المعقد في الثورة العربية الكبرى.
- محاولة فهم آليات التوظيف الاستعماري للحركات التحررية وكيفية تعامل النخب العربية مع تلك السياسات.

ثانياً: الأسباب الموضوعية:

- قلة الدراسات العربية التي تناولت مذكرات لورانس بصورة تحليلية نقدية متوازنة.
- توفر مادة تاريخية غنية، تشمل مذكرات لورانس الأساسية ("أعمدة الحكمة السبعة" و"ثورة في الصحراء") ورسائله الشخصية، إضافة إلى المصادر العربية المعاصرة.
- أهمية الموضوع في فهم تشكل الأنظمة السياسية والحدود في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى.
- إبرام عدد من الاتفاقيات السرية (سايكس-بيكو) والوعود المتضاربة (وعد بلفور) التي شكلت خلفية الصراع العربي-الصهيوني لاحقاً.

إشكالية الدراسة

تتمحور إشكالية دراستنا حول منطقة الهلال الخصيب من خلال رؤية لورانس العرب، وذلك بدراسة هذه الرؤية وتحليلها، ولمعالجة هذه الدراسة قمنا بطرح الإشكالية التالية: إلى أي

مدى عكست مذكرات توماس إدوارد لورنس واقع منطقة الهلال الخصيب وتحولاتها خلال الفترة (1909-1935)؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية الأسئلة التالية:

- ما السياق التاريخي والفكري الذي أحاط بظهور لورانس في الهلال الخصيب، وما هي الظروف التي قادت إلى الانخراط في الثورة العربية الكبرى؟
- كيف تطور دور لورانس من باحث آثاري إلى ضابط استخبارات ومخطط عسكري، وما طبيعة علاقته بالأمير فيصل والقيادة البريطانية؟
- ما الصورة التي رسمها لورانس للبنية السياسية والاجتماعية في بلاد الشام والعراق من خلال مذكراته؟
- كيف أثرت الثورة العربية الكبرى على موازين القوى داخل المنطقة، وما طبيعة التناقض بين وعود لورانس والمخططات الاستعمارية؟
- ما أثر التقسيمات الاستعمارية (سايكس-بيكو، سان ريمو) على وحدة الهلال الخصيب، وكيف قرأ لورانس تلك التحولات؟

منهج البحث

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي لملاءمته لطبيعة الموضوع إذ مكن من تتبع الأحداث والتحولات التي شهدتها منطقة الهلال الخصيب خلال الفترة الممتدة من 1909 إلى 1935 من خلال مذكرات توماس إدوارد لورنس، كما أتاح هذا المنهج جمع المادة التاريخية من مصادرها المختلفة، ونقدها وتحليلها ومقارنتها للكشف عن الصورة التي قدمها لورنس عن الأوضاع السياسية والاجتماعية في المنطقة مع ربطها بسياقها التاريخي العام، وقد تم الاستناد إلى المذكرات والوثائق والمراجع العربية والأجنبية ذات الصلة قصد الوصول إلى فهم أكثر دقة لمضامين الرواية التاريخية الواردة في مذكرات لورنس وإبراز قيمتها كمصدر لدراسة تاريخ الهلال الخصيب خلال الفترة المدروسة.

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

تناول الفصل الأول الموسوم بـ: "الإطار المفاهيمي والتاريخي للهلال الخصيب"، الإطار المفاهيمي والجغرافي للهلال الخصيب من خلال التعريف بالمصطلح وبيان حدوده الجغرافية، ثم إبراز الخصائص الاستراتيجية والسياسية للمنطقة قبيل الحرب العالمية الأولى، كما تطرق إلى شخصية توماس إدوارد لورانس من حيث نشأته وتكوينه، ودوره في الثورة العربية الكبرى وعلاقته بالقيادة العربية والبريطانية.

أما الفصل الثاني المعنون بـ: "صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى"، فقد خُصص لدراسة البنية السياسية والاجتماعية للمنطقة كما عكسها لورانس في مذكراته، من خلال وصفه لأوضاع بلاد الشام والعراق، وتحليله للعلاقة بين القبائل العربية والسلطة العثمانية، كما تناول الثورة العربية الكبرى وانعكاسها على جغرافية الهلال الخصيب، من خلال تتبع العمليات العسكرية وأثرها في موازين القوى داخل المنطقة.

في حين تناول الفصل الثالث الموسوم بـ: "إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس"، مظاهر تفكك السلطة العثمانية وصعود المشروع العربي، من خلال دراسة التحولات السياسية التي أعقبت سقوط دمشق، ثم تطرق إلى التقسيمات الاستعمارية وانعكاساتها على وحدة الهلال الخصيب، مع التركيز على اتفاقية سايكس-بيكو ونظام الانتداب الأوروبي ودورهما في تشكل الكيانات السياسية الجديدة، وفي الأخير خُتمت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها.

مصادر الدراسة ومراجعها

اعتمدت الدراسة توظيفاً منهجياً متكاملًا للمصادر، حيث شكلت مذكرات لورانس "أعمدة الحكمة السبعة" و"ثورة في الصحراء" ورسائله الشخصية المصدر الأولي الرئيسي لاستخراج صورته للهلال الخصيب، في حين استُخدمت مراسلات الحسين-مكماهون واتفاقية سايكس-

بيكو كوثائق دبلوماسية للكشف عن التناقض بين الوعود والترتيبات الاستعمارية، كما اعتمدت الدراسة على مذكرات الشخصيات العربية المعاصرة (يوسف الحكيم، محمد كرد علي) ومؤلفات جورج أنطونيوس كرواية عربية موازنة لمقارنتها برواية لورانس، أما المراجع العربية كأمين سعيد وسليمان موسى وحنا بطاطو فقد وظفت كدراسات نقدية لتدقيق الوقائع وتحليل البنية الاجتماعية، في حين استُعين بالمراجع الأجنبية المترجمة (لويل توماس، هنري لورنس، مايكل أشر) للمقارنة دون اعتبارها حقيقة مطلقة، مما حقق منهجاً تاريخياً نقدياً يقوم على التثبت والمقارنة بين الروايات المختلفة.

صعوبات الدراسة

واجهتنا مجموعة من الصعوبات أثناء إعداد هذه الدراسة من أبرزها:

- واجهت مشكلة في جمع المادة العلمية، لأن مذكرات لورانس ورسائله كانت موزعة بين طبعات وترجمات مختلفة، واضطررنا للبحث عنها في أكثر من مكتبة ومركز توثيق.
- قلة الدراسات العربية المتخصصة التي تناولت مذكرات لورانس بشكل نقدي متوازن، بينما وجدت عشرات الكتب الأجنبية عنه، وهذا فرق كبير أثر على البحث.
- ضيق الوقت نسبياً مقارنة بحجم المادة العلمية الكبيرة التي تحتاج إلى قراءة وتفريغ وتحليل.
- كثرة التواريخ والأحداث المتشابهة في فترة الحرب العالمية الأولى والثورة العربية، مما تطلب تركيزاً كبيراً ودقة في الترتيب الزمني.

الفصل الاول: الإطار المفاهيمي والتاريخي للهلال الخصيب

يشكّل الهلال الخصيب أحد أهم المجالات الجيوسياسية في تاريخ المشرق العربي حيث تداخلت فيه الأبعاد الحضارية والجغرافية مع التحولات السياسية الكبرى التي عرفت المنطقة منذ العصور القديمة وصولاً إلى مطلع القرن العشرين، فقد مثّلت هذه المنطقة التي صاغ تسميتها عالم الآثار الأمريكي جيمس هنري برستد إطاراً طبيعياً لنشوء الحضارات الأولى، كما تحولت لاحقاً إلى مجال استراتيجي تتقاطع فيه المصالح الدولية والإقليمية، خاصة مع اقتراب انهيار الدولة العثمانية واشتداد التنافس الاستعماري، ومن هنا تبرز أهمية الإحاطة بالإطار المفاهيمي والجغرافي للهلال الخصيب لفهم طبيعة التحولات التي عرفت المنطقة ودورها في بروز الفكر القومي العربي.

وفي هذا السياق برزت شخصيات تاريخية أدت أدواراً محورية في إعادة تشكيل الواقع السياسي للمنطقة، من بينها توماس إدوارد لورانس الذي ارتبط اسمه بالثورة العربية الكبرى وبالاستراتيجية البريطانية في المشرق، فقد جاء ظهوره في لحظة تاريخية حساسة تميزت بصراع القوى الكبرى على النفوذ، وبرزت الحركات القومية العربية الساعية إلى الاستقلال، مما يجعل دراسة سياق ظهوره وفهم خلفياته الفكرية والسياسية أمراً ضرورياً لتحليل طبيعة المرحلة وإدراك أبعادها الحقيقية.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والجغرافي للهلال الخصيب

شكل الهلال الخصيب منذ العصور القديمة وحدة جيوسياسية وثقافية متميزة امتدت من الخليج العربي غرباً حتى البحر المتوسط، واحتضنت أقدم الحضارات البشرية، وقد برز هذا المصطلح بقوة في الفكر السياسي العربي، ولفهم أبعاد هذا المشروع لا بد من التوقف عند الإطار المفاهيمي والجغرافي للهلال الخصيب، ثم تحليل الخصائص الاستراتيجية والسياسية التي ميزت المنطقة قبيل الحرب العالمية الأولى إذ شكلت تلك الخصائص الخلفية التي انبثقت منها دعوات الوحدة العربية.

المطلب الأول: ظهور مصطلح الهلال الخصيب وحدوده الجغرافية

لم يكن مصطلح "الهلال الخصيب" معروفاً في التراث الجغرافي أو التاريخي العربي القديم بل هو تعبير حديث صاغه عالم الآثار الأمريكي جيمس هنري برستد (James Henry Breasted) لأول مرة، فقد زار برستد مصر وعاش فيها أواخر القرن التاسع عشر، وجال في المناطق المجاورة، وفي كتابه "العصور القديمة (Ancient Times)" الصادر عام 1916 في بوسطن، والذي كان مقرراً دراسياً في المدارس الثانوية، أشار إلى أنه لا يوجد اسم جغرافي أو سياسي يطلق على المنطقة التي تتجمع في نصف دائرة من الأراضي الخصبة، وقال: "فنحن مضطرون عندما نتحدث عن هذا الجزء من الناحية التاريخية كوحدة أن نجد اسماً له، ولهذا نطلق عليه في كتابنا اسم الهلال الخصيب (The Fertile Crescent)"، وقد أصبح هذا الاسم منذ ذلك العهد شائع الاستعمال¹، وبذلك يعتبر برستد أول من أطلق هذه التسمية على منطقة شط العرب.

أما حدود الهلال الخصيب الجغرافية فتحددها المصادر وفق رؤية طبيعية متكاملة، يقع الموقع الفلكي للهلال الخصيب بين دائرتي عرض 28 و38 درجة شمالاً، وبين خطي طول

¹ James Breasted, Ancient Times (History of the Early World), 2nd Edit, GINN AND COMPANY, Boston, 1947, p. 133

20 و 48 درجة شرقاً¹، ويتكون الإطار الجغرافي من منطقتين رئيسيتين: الأولى تقع على القرن الغربي، وتشمل حالياً سوريا ولبنان وفلسطين، وهي ذات وحدة حضارية وطابع خاص منذ القدم/ والثانية تقع على القرن الشرقي وتشمل العراق، ويجري فيها نهرا دجلة والفرات الكبيران، وتعرف بأرض الرافدين، وتتميز حضارتها بطابع خاص يختلف عن الحضارة في النطاق الغربي للهلال الخصيب، ويضيف الباحثون أن الهلال الخصيب هو منطقة جغرافية واحدة، فلا حدود طبيعية أو تاريخية تفصل بين أجزائه، ولم يشهد انفصلاً منذ فجر التاريخ². ويتحدد الهلال الخصيب طبوغرافياً كالتالي: يحده من الشمال هضبة الأناضول وجبال طوروس، ومن الشمال الشرقي والشرق الهضبة الإيرانية وجبال زاغروس، ويمتد جنوباً حتى الخليج العربي، ويشكل الجزء الشمالي لشبه الجزيرة العربية القوس الجنوبي لهذا الهلال، وطرفه الغربي ممتد من الحد الجنوبي الشرقي للبحر المتوسط³، ويضيف برستد في كتابه "انتصار الحضارة" أن الهلال الخصيب "يرتكز حرفه الغربي في جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط، ووسطه فوق شبه جزيرة العرب، ويرتكز حرفه الآخر عند الخليج العربي، وخلف ظهر هذا الهلال تقوم الجبال المرتفعة، وعلى هذا تكون فلسطين عند نهاية القرن الغربي منه، وبلاد الرافدين في القرن الشرقي"⁴.

أما الدول المكونة للهلال الخصيب فقد اختلفت الآراء حولها، لكن المتفق عليه عند غالبية المؤرخين أنه يضم كلاً من العراق (بلاد الرافدين) وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن⁵، كما أضاف بعض الباحثين مصر ضمن الهلال الخصيب لارتباطها ببلاد الشام عبر شبه جزيرة سيناء، وإن كان التحديد الأول - الذي يستثني مصر - أقرب إلى المنطق والواقع، نظراً

¹ بصال مالية، "قراءة في طبوغرافية وديمغرافية الهلال الخصيب إلى غاية نهاية الألف الأول قبل الميلاد"، مجلة دفاتر

البحوث العلمية، مج 5، ع 2، 2017، ص 280.

² نفسه، ص 280.

³ جيمس هنري برستد، انتصار الحضارة (تاريخ الشرق الأدنى القديم)، تر: أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة،

2011، ص 151

⁴ نفسه، ص 151

⁵ هشام عبود الموسوي، موسوعة الحضارات القديمة، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2013، ص 98.

لوجود صحراء سيناء كفاصل طبيعي¹، وقد حددت معاهدة "سايكس بيكو" عام 1916 الهلال الخصيب بالدول التالية: العراق، سوريا، الأردن، فلسطين، لبنان².

والحق أن مصطلح الهلال الخصيب في الواقع هو تعبير جغرافي قبل أن يكون تعبيراً سياسياً، فهو يعبر عن وحدة طبيعية واقتصادية، حيث تتميز تربتها بالخصوبة وغزارة المياه وتنوع الأقاليم، مما جعلها منطقة جذب للسكان ومهداً للحضارات، فقد نشأت في هذه المنطقة حضارات عديدة: السومرية، الأكديّة، البابليّة، الآشوريّة، الكلدانيّة، الأموريّة، الكنعانيّة (الفينيقيّة)، الآرامية والعبريّة³، ويؤكد الباحثون أن الهلال الخصيب يعد مثلاً حياً لتعايش الثقافة البدوية مع الحضريّة، وتداخل الأدوار بين السكان والأمم المجاورة منذ العصر القديم⁴.

المطلب الثاني: الخصائص الاستراتيجية والسياسية للمنطقة قبيل الحرب العالمية الأولى

كانت منطقة الهلال الخصيب قبيل الحرب العالمية الأولى (1914-1918) تمتلك خصائص استراتيجية وسياسية بالغة الأهمية، جعلتها محط أنظار القوى الاستعمارية الكبرى، وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا، كما شكلت مهداً لظهور الحركات القومية العربية التي طالبت بالاستقلال والوحدة.

1. الأهمية الجيوستراتيجية والاقتصادية:

تمثل منطقة الهلال الخصيب ممراً حيوياً يربط بين قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا، فهي تحتوي على الموانئ الطبيعية على البحر المتوسط (كبيروت وصيدا والإسكندرونة)، كما تضم الأنهار الكبرى (دجلة والفرات) التي كانت طرقاً ملاحية وتجارية مهمة، وقد أدركت القوى الأوروبية أن السيطرة على هذه المنطقة تعني السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى الهند والخليج العربي، وهو ما دفع بريطانيا إلى الاهتمام بالعراق والخليج، وفرنسا إلى الاهتمام بسوريا ولبنان، كما أن ثروات المنطقة الزراعية (القمح، الشعير، القطن) والنفط (الذي بدأ اكتشافه

¹ بصال مالية، مرجع سابق، ص 282.

² جوزيف حجار، سوريا بلاد الشام (تجزئة وطن)، دار طلاس، ط1، 1999، ص 37.

³ بصال مالية، مرجع سابق، ص 282-294.

⁴ فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق، 1995، ص 187.

لاحقاً) زاد من أهميتها الاستراتيجية¹.

2. الوضع السياسي تحت الحكم العثماني:

كانت منطقة الهلال الخصيب قبيل الحرب العالمية الأولى جزءاً من الدولة العثمانية التي كانت تعاني وقتها من الضعف والانحلال، وقد قسمت الولايات العثمانية المنطقة إلى عدة ولايات: ولاية بغداد، ولاية الموصل، ولاية البصرة (في العراق)، وولاية حلب، وولاية سوريا، وولاية بيروت، ومنتصرفية جبل لبنان، وسنجق القدس²، وقد عانى العرب في هذه المناطق من سياسة التتريك التي انتهجها حزب الاتحاد والترقي بعد ثورة 1908 حيث تم فرض اللغة التركية كلغة رسمية وحيدة، وإقصاء اللغة العربية من المؤسسات الحكومية والتعليم، مما أثار استياء النخب العربية وزاد من مشاعر الانفصال في أوساط الشعب العربي في هذه المناطق.

3. بروز الفكر القومي العربي:

في ظل التهميش والاضطهاد بدأت تظهر الجمعيات والأحزاب السرية التي تطالب بحقوق العرب واستقلالهم، من أبرز هذه الجمعيات: "اللامركزية الإدارية" (1912)، "جمعية العربية الفتاة" (1911)، و"جمعية العهد" (1913) وهذه الأخيرة تأسست في إسطنبول في 18 سبتمبر 1913 بزعامة عزيز علي المصري، وهي جمعية عربية عسكرية سرية، وُصفت بأنها من أقوى الجمعيات نظراً لتنوع أعضائها الذين كان معظمهم من أصل عراقي³، وكان نوري السعيد آنذاك ضابطاً في الجيش العثماني، وكان بيته في حي بشكتاش أحد مراكز الجمعية السرية، حيث كانت تقام الاجتماعات وتحفظ النشرات والوثائق السرية⁴، وقد حملت الجمعية هذا الاسم لتكون "عهداً بين أعضائها وبين الله على خدمة الوطن"⁵.

¹ محسن محمد المتولي العربي، نوري باشا السعيد من البداية إلى النهاية، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2005، ص 216-215.

² عبد الوهاب الكيالي، موسوعة سياسية، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، (د.ت)، ص 129 .

³ مصطفى الشهابي، القومية العربية: تاريخها، قوامها ومراميها، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1961، ص 68

⁴ عبد الرحمن برج، عزيز علي المصري والشركة العربية 1908-1916، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية للأهرام، القاهرة، 1997، ص 88 .

⁵ محسن محمد المتولي العربي، مرجع سابق، ص 77 .

4. الصراع على النفوذ بين القوى الاستعمارية:

قبيل الحرب العالمية الأولى كانت الدول الأوروبية الاستعمارية (بريطانيا وفرنسا وألمانيا) تتنافس على النفوذ في منطقة الهلال الخصيب، حيث كانت فرنسا تسعى لتوسيع وجودها في سوريا ولبنان بحكم علاقاتها التاريخية والدينية، أما بريطانيا فكانت تحمي مصالحها في الخليج العربي والعراق خاصة بعد أن حصلت على امتيازات نفطية في جنوب إيران وكويت، أما ألمانيا فكانت تسعى لمد خط سكة حديد برلين - بغداد - البصرة، مما هدد المصالح البريطانية¹، وقد استغلت كل من هذه الدول المطالب القومية العربية كورقة ضغط ضد الدولة العثمانية، وهو ما تجلّى لاحقاً في مراسلات الشريف حسين² مع البريطانيين واتفاقية سايكس بيكو (1916) التي قسمت المنطقة إلى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية³.

5. الأبعاد الاجتماعية والدينية:

تميز الهلال الخصيب بتنوع ديني وطائفي كبير (مسلمون سنة وشيعة، مسيحيون من مختلف الطوائف، وأيضاً يهود، موحدون دروز، علويون، إلخ)، وقد لعبت هذه التنوعات دوراً في السياسة الاستعمارية التي اتبعت مبدأ "فرق تسد"، كما كانت الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والنجف وكربلاء تشكل مركز جذب للحجاج من جميع أنحاء العالم، مما أعطى المنطقة أهمية دينية خاصة⁴.

6. الظهور الأول لنوري السعيد كفاعل سياسي:

في هذا السياق بدأ نوري السعيد مسيرته السياسية من خلال نشاطه في جمعية العهد،

¹ لونيش دليلا، طرشون نادية، تطور الصراع الفرنسي البريطاني على المشرق العربي من خلال الاتفاقيات المبرمة أثناء الحرب العالمية الأولى (سايكس بيكو 1916 أنموذجاً)، مجلة دراسات وابحات، مج 13، ع 1، 2021، ص 526

² الشريف حسين (1854 - 1931) حسين بن علي شريف مكة وأميرها من سنة 1908 م إلى 1916 م، وملك الحجاز (1916 - 1924) ولد في اسطنبول وانتقل الى مكة مع أسرته، نظم مراسلات الشريف حسين مكماهون وأعلن الجهاد ضد الدولة العثمانية، (انظر، كليب سعود الفوز، مراسلات الشريف الحسين والسلطين العثمانيين 1908 - 1918م، المكتبة الوطنية، (دب)، 1997 م، ص 60

³ نفسه، ص 77

⁴ عبد الغني بن علي، مشكلة تحديد الهوية في الشرق الأوسط بين الديني والمدني عند المستشرق برنارد لويس، مجلة

ألف اللغة والاعلام والمجتمع، مج 11 ع 5-2، 2024، ص ص 582-583

حيث كان له نشاط كبير وملحوظ، إذ بدأ اتصالاته بالطلاب العرب في الكلية الحربية بإسطنبول وراح يحثهم على الأفكار القومية¹، وعندما اعتقل الاتحاديون عزيز علي المصري في 9 فبراير 1914، بذل نوري جهوداً كبيرة للإفراج عنه، واتصل بالسفارات الأجنبية في العاصمة التركية لإعلامها باعتقال المصري، ما دفع تلك السفارات للضغط على الاتحاديين لإطلاق سراحه، وقد تم بالفعل إطلاق سراحه في 21 أبريل 1914²، وقد أظهر نوري السعيد في هذه الفترة قدرة على التواصل مع الأطراف الأجنبية، وهو ما سيكون له دور كبير في اتصاله لاحقاً مع البريطانيين خلال الثورة العربية الكبرى³.

وصفوة القول فإن منطقة الهلال الخصيب قبيل الحرب العالمية الأولى كانت تمثل بؤرة توتر وتنافس دولي، وفي الوقت نفسه معقلاً لانطلاق الفكر القومي العربي الذي نادى بالاستقلال والوحدة، وقد اكتسب نوري السعيد خبراته الأولى في العمل السياسي السري والاتصال بالدول الكبرى من خلال جمعية العهد، وهي خبرات ستؤهلها ليصبح أحد أبرز صناع القرار في العراق والعالم العربي لعقود قادمة.

¹ سعاد رؤوف شير محمد، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1945، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة بغداد، العراق، 1985، ص 251-252

² فاضل حسين، الفكر السياسي في العراق المعاصر 1914-1958، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، 1984، ص 20.

³ محسن محمد المتولي العربي، مرجع سابق، ص 78

المبحث الثاني: لورانس العرب وظروف ظهوره في الهلال الخصيب

يمثل ظهور شخصية توماس إدوارد لورانس في منطقة الهلال الخصيب جزءاً من سياق تاريخي معقد ارتبط بالتحوّلات الكبرى التي شهدتها المشرق العربي في أواخر العهد العثماني وبداية القرن العشرين خاصة مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وما رافقها من صراع دولي على النفوذ والمصالح في المنطقة، فقد تحوّل الهلال الخصيب إلى مسرح للتنافس الاستعماري بين القوى الأوروبية وعلى رأسها المملكة المتحدة وفرنسا اللتين سعتا إلى تفكيك الدولة العثمانية وإعادة رسم خريطة المنطقة بما يخدم مصالحهما الاستراتيجية.

وبرز دور لورانس كأحد الفاعلين الرئيسيين الذين جمعوا بين العمل الاستخباراتي والتدخل الميداني، حيث استثمرت بريطانيا معرفته بالبيئة العربية ولغتها وعاداتها لتوظيفه في دعم الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين بن علي وأبنائه في محاولة لإضعاف السيطرة العثمانية على المنطقة، ولم يكن ظهور لورانس حدثاً عرضياً بل نتيجة مسار طويل من التكوين العلمي والاحتكاك المبكر بالمشرق العربي، إضافة إلى ارتباطه بالمؤسسات البحثية والاستخباراتية البريطانية التي رأت فيه أداة فعالة لتحقيق أهدافها السياسية والعسكرية. (أنظر الملحق رقم 03)

المطلب الأول: التعريف بتوماس إدوارد لورانس.

أولاً: ميلاده ونشأته

ولد توماس إدوارد لورانس في صبيحة يوم السادس عشر من شهر أوت عام 1888 في قرية "ترمادوك" الويلزية، وهي قرية صغيرة تقع في شمال ويلز بالمملكة المتحدة¹، كان الابن الثاني بين خمسة أبناء لإدوارد روبرت تشابمان. (أنظر الملحق رقم 01)

وهو نبيل إيرلندي من مقاطعة غالوي يمتلك أراضٍ وعقارات واسعة، وسارة مادن جنير، وهي امرأة اسكتلندية كانت تعمل مربية لأبناء تشابمان من زوجته الشرعية أديت هاملتون، تميزت علاقة والديه بالغرابة، إذ كان توماس تشابمان قد تزوج من ابنة عمه أديت هاملتون

¹ أنتوني ناتنغ ولويل توماس، لورنس العرب لغز الجزيرة العربية، مكتبة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1999، ص 5.

عام 1873 في زواج قائم على الروابط العائلية والاجتماعية، وأنجب منها أربع بنات، لكنه وقع في غرام مربية بناته سارة وهجر زوجته الشرعية ليعيش مع سارة دون زواج رسمي، منتقلاً من إيرلندا إلى فرنسا ثم إلى ويلز هرباً من الفضيحة¹.

والجدير بالذكر أن الأب غير اسم العائلة من تشابمان إلى لورنس تجنباً لوصمة العار، وعاش مع سارة كزوجين، لكنهما لم يتزوجا قط، مما جعل لورنس وإخوته أبناءً غير شرعيين وفقاً لقوانين ذلك العصر، ترك هذا الظرف العائلي أثراً عميقاً في نفسية لورنس، إذ عاش طفولته وشبابه وهو يشعر بالعار والذنب والاغتراب، كتب لورنس في خطاب له عام 1927 يقول: "إن شعوراً قوياً بالخطيئة قد جرفها [والدتي] لأن والدي ترك زوجته كي يعيش معها من دون زواج، وقد دفعها هذا إلى أن تنغمس بأكثر مما كانت تحتمه تربيتها في أمور الدين، وإلى أن تلح علينا بأن نكون صالحين، وبأن نصلي كأننا سنكفر بما سنفعله من خطيئة والدينا"²، كانت والدته سارة صارمة في تربيتها الدينية، وأنشأت أبناءها نشأة كالفينية متشددة، مما زاد من حدة التوتر النفسي لدى لورنس.

والحق أن عائلة لورنس لم تستقر في مكان واحد طويلاً إذ انتقلوا من ويلز إلى شمال اسكتلندا حيث مكثوا ثلاث سنوات، ثم إلى جزيرة مان، ثم إلى جزيرة جيرس البريطانية، حيث التحق لورنس وإخوته بكلية الآباء اليسوعيين في فرنسا، وأخيراً استقروا في مدينة أكسفورد الإنجليزية، حيث شعرت العائلة بالأمان والاستقرار، فعاش لورنس طفولة انطوائية مفضلاً العزلة والقراءة على الاختلاط بأقرانه، وكان شغوفاً بالألعاب العسكرية وقصص البطولة والمغامرة.³

¹ حسام علي محسن المدامغة، لورنس والقضية العربية (1888-1935)، دار الأوائل للنشر والتوزيع، ط 2، دمشق-سوريا، 2005، ص 17.

² توماس إدوارد لورنس، أسرار لورنس العرب رسائل لورنس السرية، تر: سامي الحجازي، تد: فؤاد فراح، دار الأهلية للنشر والتوزيع، ط 1، الأردن، 2009، ص 7

³ لويل توماس، لورنس في بلاد العرب مشاهدات تاريخية وسياسية، تر: صالح عثمان، دار الأهلية للنشر والتوزيع، ط 1، الأردن، 2009، ص 12-13.

قُتل اثنان من إخوته، وليام وفرانك، في ميادين القتال بفرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى، وهي الخسارة التي زادت من مرارة لورنس تجاه الحرب وجعلته يتساءل عن جدوى التضحية البشرية في صراعات كبرى لا طائل من ورائها¹.

ثانياً: تكوينه وتعليمه

تلقى لورنس تعليمه الأولي في مدارس أكسفورد بالمملكة المتحدة، حيث أدخله والده مدرسة أكسفورد العليا، وهناك أطلق عليه أصدقائه اسم "نيد"، تميز لورنس في الدراسة رغم حياته غير المنتظمة، فتعلم القراءة والكتابة قبل أن يبلغ الرابعة من عمره، وأتقن اللغة الفرنسية قبل سن الثامنة، في مدرسة سانت جون بأكسفورد، لم يعشق من مواد الدراسة غير التاريخ، وبصفة خاصة تاريخ المشرق العربي وفن العمارة العسكرية في العصور الوسطى، فكان يمضي معظم وقته متجولاً حول إنجلترا ماشياً على الأقدام، يدرس القلاع القديمة والآثار، متأملاً في استراتيجيات الحروب الصليبية²، في نهاية مرحلة الدراسة الثانوية، حصل لورنس على مكافأة مالية للمتفوقين، مكنه من الالتحاق بجامعة أكسفورد، حيث درس التاريخ في كلية يسوع³. اهتم لورنس خلال سنواته الجامعية بقراءة الكتب العسكرية وأعجب بشكل خاص بكتاب "مبادئ الحرب" للمارشال الفرنسي فرديناند فوش⁴، الذي أثر في تفكيره العسكري لاحقاً، كما تأثر بأستاذه ديفيد جورج هوغارث عالم الآثار الكبير وأحد كبار العاملين في المخابرات البريطانية الذي رعى موهبة لورنس ووجهه نحو دراسة القلاع الصليبية في الشرق.

¹ علي الجوهرى، لورنس العرب الرجل الذي خان العرب، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2001، ص 13.

² مايكل أشر، لورنس ملك العرب غير المتوج، تر: فاطمة نصر، دار النشر، 1998، ص 10.

³ لويل توماس، مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب أثناء الثورة العربية الكبرى 1916-1918، تر: احمد ايش، دار الكتب الوطنية، ابوظبي، 2013، ص 6

⁴ فرديناند فوش (1851-1929) هو قائد عسكري ومارشال فرنسي، يُعد من أبرز القادة العسكريين في الحرب العالمية الأولى، وتولى قيادة قوات الحلفاء خلال المراحل الأخيرة من الحرب، وأسهم في تحقيق النصر على ألمانيا سنة 1918. للمزيد ينظر: بسام العسلي، المارشال فرديناند فوش (1851-1929)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983، ص (11)

كان موضوع الرسالة التي تقدم بها لورنس لنيل شهادته هو "الفن المعماري الحربي عند الصليبيين في الشرق"، وهو موضوع لم يختره لورنس اعتباطاً بل بتوجيه من هوغارث الذي رأى في لورنس أداة مثالية لنشر الأفكار البريطانية في المنطقة العربية، ودراسة استعدادات الدولة العثمانية وألمانيا¹.

تميز لورنس بقصر قامته حيث بلغ طوله 1.66 سم لكنه كان ضخماً البنية وطويل الذراعين، له عينان كبيرتان زرقاوتان ووجه مستدير ناعم، عُرف بحبه للباس العربي التقليدي إذ كان يتردد على الأسواق الشعبية في القدس ودمشق وبيروت ليشترى الأثواب العربية، ويتخلى عن ملابسه الأوروبية، وسار حافياً في أسواق المدن العربية، وتعود على أكل لحوم الإبل والغزلان، وشرب القهوة العربية المرة بدلاً من الشاي والبسكويت، ارتدى العباءة والكوفية والعقال، وثبتت على خصره خنجرًا عربيًا، مما جعله يبدو كواحد من شيوخ القبائل، وكسب ثقة العرب واطمئنأنهم إليه². (أنظر الملحق رقم 02)

ثالثاً: رحلته إلى المشرق العربي

تجدر الإشارة إلى أن رحلة لورنس الأولى إلى المشرق العربي انطلقت في صيف عام 1909، بعد أن أقنعه أستاذه هوغارث بضرورة زيارة القلاع الصليبية في سوريا وفلسطين ولبنان لجمع المادة العلمية لأطروحته، أبحر لورنس من إنجلترا إلى بورسعيد، ثم إلى بيروت، وأكمل طريقه سيراً على قدميه ماراً بصيدا والخليل وطبريا والناصره وحيفا وعكا وصور، ثم توجه شمالاً إلى طرابلس وحلب، وعاد أخيراً إلى دمشق، قضى في هذه الرحلة عدة أشهر، عاش خلالها مع السكان المحليين، وتعلم عاداتهم وتقاليدهم، وأتقن اللغة العربية بلهجاتها المحلية³، لم تكن هذه الرحلة مجرد رحلة أكاديمية عادية، بل كانت مهمة استطلاعية غطتها الدراسات الأثرية، بتوجيه من المخابرات البريطانية، لجمع معلومات عن تحركات الألمان

¹ صبحي العمري، لورنس الحقيقة والأكذوبة، رياض الريس للكتب والنشر، ط 1، لندن، 1991، ص 64.

² شاكر خليل نصار، لورنس والعرب، المطبعة الأميركية، ط 1، بيروت، 1930، ص 2-5.

³ فيليب نايتلي وكولون سمبسون، المخفي من حياة لورنس، تر: إيلي الوند وإبراهيم العابد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت، 1971، ص 35.

ومشاريعهم في مد سكة حديد برلين-بغداد، وعن أوضاع الدولة العثمانية واستعداداتها الحربية. بعد عودته إلى أكسفورد حصل لورنس على درجة الشرف الأولى في التاريخ الحديث بتقدير ممتاز جداً، ثم سافر مجدداً إلى المشرق عام 1911 للعمل في التنقيب عن الآثار الحثية في موقع "كركميش" على نهر الفرات، برفقة صديقه ليونارد وولي، حيث أشرف لورنس على العمال العرب والأكراد والتركمان والأرمن الذين يعملون في البعثة مما أتاح له فرصة الاختلاط بمختلف القوميات والأديان، وفهم التركيبة المعقدة للمجتمع السوري¹، لكن عمله المعلن لم يكن سوى غطاء لمهمة خفية، تمثلت في مراقبة وتصوير تحركات المهندسين الألمان الذين كانوا يبنون جسراً استراتيجياً على نهر الفرات لمد خط سكة الحديد، وقد كتب لورنس إلى والديه يقول: "أستطيع الرؤية بوضوح على بعد ميلين خلال عدسات الناظور البعيد المدى"². إرتاب الأتراك في أمر لورنس سنة 1912 فكتب إلى هوغارث يقول: "هذه الدولة العجوز مازال فيها بعض حياة بعد، فإنها تراقبني"، لكن جهود لورنس قُوبلت بنجاح كبير، إذ تم العثور على آثار مهمة ضمها متحف أشمولين في أكسفورد، وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914، التحق لورنس بمكتب الاستخبارات البريطانية في القاهرة، حيث عمل على تحديث الخرائط العسكرية لمناطق عمليات الجيش البريطاني، واستجواب الأسرى والفارين من الرعايا العثمانيين، ثم أصبح عضواً في المكتب العربي الذي تأسس عام 1916 لرسم السياسة البريطانية تجاه الثورة العربية³.

رابعاً: وفاته

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وانعقاد مؤتمر الصلح في باريس شعر لورنس بالخيبة والمرارة إثر خيانة بريطانيا للوعود التي قطعها للعرب، فقرر الابتعاد عن الأضواء والشهرة، وفي أوت 1922 التحق بسلاح الجو الملكي البريطاني تحت اسم مستعار هو "جون هيوم روس"، ثم

¹ حسام علي محسن المدامغة، لورنس والقضية العربية، مرجع سابق، ص 31.

² زهدي الفاتح، لورنس العرب على خطى هرتزل: تقارير لورنس السرية، دار النفائس، بيروت، 1971، ص 34

³ علي الجوهري، مرجع سابق، ص 25

غير اسمه لاحقاً إلى "توماس إدوارد شو" بعد أن اكتشفت الصحافة هويته الحقيقية. (أنظر الملحق رقم 06)

خدم لورنس جندياً بسيطاً في ثكنات الجيش وقواعد سلاح الجو، بعيداً عن مناصب القيادة والأوسمة التي رفضها، منشغلاً بكتابة مذكراته وتأليف كتبه، أشهرها "أعمدة الحكمة السبعة" و"ثورة في الصحراء" و"دار ضرب النقود"¹.

وفي صباح يوم الأحد 19 ماي 1935 كان لورنس يقود دراجته النارية السريعة من طراز "برو سوبر سبورتس" على طريق قريب من كوخه في كلاودزهيل بمقاطعة دورست، حين حاول تقادي صبيين كانا يقودان دراجتيهما الهوائيتين، فقد السيطرة على دراجته وانقلبت به أرضاً، أصيب لورنس بإصابات بالغة فقد تحطمت جمجمته وتمزقت أوصاله الداخلية، ونُقل إلى المستشفى فاقداً للوعي، حيث مكث في غيبوبة ستة أيام حاول خلالها كبار الأطباء إنقاذ حياته دون جدوى حيث فارق الحياة في الساعة الثامنة من صباح يوم 19 ماي².

شُيِّعت جنازة لورنس في 21 ماي 1935 وحضرها كبار رجال الدولة البريطانية يتقدمهم وزير المستعمرات ثم وزير الحربية ونستون تشرشل، وصديقه النقيب رونالد ستورز، ودفن في كنيسة قرية "مورثون" الصغيرة وفقاً لوصيته، أرسل الملك جورج الخامس رسالة تعزية إلى شقيق لورنس أرنولد جاء فيها: "يحيا اسم أخيك في التاريخ، ويشعر الملك بكل امتنان للخدمات التي قدمها لبلاده، ويشعر أنه لأمر سيء أن تنتهي بهذا الشكل حياته التي لا تزال تبشر بالمزيد"³، ترك لورنس خلفه إرثاً كتابياً مهماً وأسئلة مفتوحة حول حقيقة دوره في الثورة العربية، وهل كان بطلاً قاد العرب إلى النصر، أم خائناً مزدوجاً خدم مصالح بلاده على حساب استقلال العرب.

المطلب الثاني: دوره في الثورة العربية الكبرى وصلته بالقيادة العربية والبريطانية

أولاً: لقاء لورنس بقيادة الثورة العربية واكتشافه للأمير فيصل

¹ أنتوني ناتنغ ولويل توماس، مرجع سابق، ص 301-303

² مايكل أشر، مرجع سابق، ص 495-496

³ يعقوب يوسف كورية، الإنجليز في حياة فيصل الأول، دار الأهلية للنشر والتوزيع، ط 1، عمان، 1998، ص 105

وصل لورنس إلى جدة في 19 أكتوبر 1916 بعد أربعة أشهر من اندلاع الثورة العربية، وكانت الثورة آنذاك تمر بمرحلة حرجة، إذ استعاد الأتراك زمام المبادرة بعد فشل الهجوم على المدينة المنورة، وتراجعت القوات العربية تحت ضغط المدفعية التركية المتفوقة، رافق لورنس في هذه الزيارة الدبلوماسي البريطاني "رونالد ستورز"، وكان الهدف المعلن هو تقييم احتياجات الثورة، لكن الهدف الخفي كان البحث عن قائد عربي قادر على توحيد القبائل وتوجيه ثورتهم نحو الشمال لخدمة المصالح البريطانية في إضعاف الدولة العثمانية.

فاستقبلهم الأمير عبد الله بن الحسين في جدة وأجرى لورنس محادثات مطولة معه حول الوضع العسكري، لكنه سرعان ما استنتج أن عبد الله، رغم ذكائه وحنكته السياسية، لا يصلح حسب تعبيره ليكون "النبي الملهم" القادر على قيادة الثورة بحماس وجاذبية، وقد كتب لورنس في مذكراته: "كانت شكوكي تتجمع في قناعاتي بأن ما ينقص الثورة هو الزعامة، لا المواهب العقلية أو الحكمة السياسية، وبكلمة أخرى كان ينقصها شعلة الحماس التي تلهب الصحراء وتحولها ناراً متقدمة"¹.

رفض الشريف حسين في البداية مقابلة لورنس لكنه وافق بعد إلحاح ستورز على أن يقابل لورنس ابنه الثالث الأمير فيصل² الذي كان يقود الجيش الشمالي في منطقة وادي الصفراء جنوب المدينة المنورة، فسافر لورنس بصحبة الأمير زيد بن الحسين ووصل إلى معسكر فيصل عصر يوم 23 أكتوبر 1916³، وهناك حدث اللقاء الحاسم الذي غير مسار حياة لورنس ومسار الثورة العربية، وقد وصف لورنس ذلك اللقاء بكلمات بالغة الدلالة: "شعرت

¹ توماس إدوارد لورنس، ثورة في الصحراء مذكرات حول الثورة العربية الكبرى، تر: أحمد إيبش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات، 2013، ص 25-26 .

² الأمير فيصل (1833 - 1933 م) هو الابن الثالث لشريف حسين ولد بالطائف، وانتقل مع والده إلى اسطنبول حيث تلقى تعليمه باللغة العربية والتركية، وعاد مع والده إلى الحجاز، ليصبح من أبرز القادة في الثورة العربية تولى قيادة الجيش المتجه إلى الشام وفي عام 1920 م توج ملكاً على سوريا وامتازت شخصيته بالبراعة والحنكة السياسية، وتوفي بسويسرا ودفن في بغداد (للمزيد ينظر: الزركلي، الاعلام، ج 5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص 165)

³ توماس إدوارد لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، 1963، ص

منذ النظرة الأولى إليه بأنه هو الرجل الذي كنت قد أتيت إلى شبه الجزيرة العربية لكي أبحث عنه، القائد الذي كان سيصل بالثورة العربية إلى النصر الكامل¹، رأى لورنس في فيصل القائد الكاريزمي، الطويل القامة، القوي البنية، سريع الحركة، ذا العيون السوداء الزاهية، الجاذبية الشخصية الفائقة، والحلم العربي الكبير بتوحيد العرب واستقلالهم عن العثمانيين، من جانبه رأى فيصل في لورنس الضابط البريطاني المثقف، الذي يعرف العربية جيداً، الملم بعادات البدو، القادر على فتح قنوات التواصل مع القيادة البريطانية لتزويد جيشه بالسلاح والمال والخبرات العسكرية الحديثة².

ثانياً: دوره العسكري الاستراتيجي في الثورة

لم يكن دور لورنس في الثورة العربية مجرد دور ضابط ارتباط ينقل الرسائل بين القادة، بل تجاوز ذلك إلى التخطيط الاستراتيجي المبتكر الذي غيّر طبيعة الحرب في الجزيرة العربية، حيث أدرك مبكراً أن القوات العربية غير النظامية لا يمكنها مجابهة الجيش العثماني النظامي في معارك تقليدية، لأن العرب يفتقرون إلى الانضباط والتنظيم والمدفعية الثقيلة التي يمتلكها الأتراك، لذا طور نظرية حرب العصابات القائمة على مبدأ "الحركة والسرعة والمباغته"، مركزاً على شل قدرات العدو عبر تدمير خطوط مواصلاته وإمداداته، وأهمها سكة حديد الحجاز التي كانت تربط دمشق بالمدينة المنورة³، كتب لورنس في مذكراته معلقاً على هذه الاستراتيجية: "حرب الحجاز حرب الدراويش ضد القوات النظامية، ونحن إلى جانب الدراويش، فلا تنطبق كتبنا المدرسية على شروطها إطلاقاً، إنها معركة ريف صخري جبلي رديء المياه ضد قوة تم تحسينها - في ما يتعلق بالحرب المتحضرة - إلى حد كبير من قبل الألمان"⁴.

نفذ لورنس شخصياً العديد من العمليات التخريبية الناجحة، ففي ماي 1917 قاد قوة صغيرة من قبيلة الحويطات بزعامة الشيخ "عودة أبو تايه" في مسيرة صحراوية استمرت شهرين،

¹ علي الجوهري، مرجع سابق، ص 35-36 .

² أنتوني ناتنغ ولويل توماس، لورنس العرب مرجع سابق، ص 56-57.

³ صبحي العمري، مرجع سابق، ص 105.

⁴ توماس إدوارد لورنس، أسرار لورنس العرب، مرجع سابق، ص 26.

قطعوا خلالها أكثر من 600 ميلاً عبر أصعب التضاريس، متجنبين المواقع التركية المحصنة، وضربوا ميناء العقبة الاستراتيجي من الخلف، فسقطت الحامية التركية في 6 جويلية 1917 بعد معركة قصيرة، وكانت العقبة آنذاك الميناء الوحيد المتبقي للعثمانيين على البحر الأحمر شمال الحجاز، وقد فتح سقوطها الطريق أمام الجيش البريطاني بقيادة الجنرال ألنبي للتقدم نحو فلسطين وسوريا¹، وتوالت العمليات الناجحة بعد ذلك: في سبتمبر 1917 نسف قطاراً تركياً في محطة "المدورة" وقتل وأسر أكثر من مائة جندي عثماني؛ وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1917 دمر جسراً استراتيجياً في وادي اليرموك؛ وفي جانفي 1918 قاد معركة الطفيلة التي دمر فيها لواء تركياً كاملاً وغنم مدافعه ورشاشاته، بلغ مجموع ما أنجزه لورنس من عمليات تخريبية، وفقاً لتقديراته، تدمير 25 قطاراً و 57 جسراً و 15 ألف قضيبياً حديدياً².

ثالثاً: علاقته بالقيادة العربية والبريطانية (ازدواجية الولاء)

اتسمت علاقة لورنس بالأمير فيصل بالتعقيد والازدواجية، إذ جمعت بين الإعجاب الشخصي الصادق والمصلحة الوطنية البريطانية، ومن جهة نما الاحترام والتقدير بين الرجلين، وأصبح لورنس المستشار الأول للأمير فيصل في الشؤون العسكرية والسياسية، وكان فيصل يثق في حكمة لورنس ونزاهته الظاهرية لدرجة أنه كان يقلده أوسمة عربية ويجعله قريباً منه في المجالس والمعارك³، من جهة أخرى ظل لورنس ضابطاً بريطانياً يؤدي واجبه الوطني، وكان يطلع قاداته في القاهرة والقدس على كل صغيرة وكبيرة، ويتلقى أوامره وتوجيهاتهم، حيث كتب لورنس في رسالة إلى قائده الجنرال كلايتون معترفاً بصعوبة ازدواجية الأدوار: "أستخدم نفوذي على فيصل لكي تكون معاملة اليهود في فلسطين من قبل العرب أفضل معاملة"⁴، هذه

¹ سليمان موسى، لورنس العرب وجهة نظر عربية، د د ن، عمان، 1963، ص 102-105 .

² جورج أنطونيوس، يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، تر: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، ط 8، بيروت، 1978، ص 325-330 .

³ مالكولم براون، لورنس العرب في الحرب والسلام، مختارات من كتاباته العسكرية، تر: هيثم فرحت، دار الساقي، ط 1، لندن، 2022، ص 219 .

⁴ حسام علي محسن المدامغة، لورنس والقضية العربية، مرجع سابق، ص 152 .

الازدواجية وصلت إلى ذروتها بعد احتلال دمشق في 1 تشرين الأول/أكتوبر 1918، حين كشفت بريطانيا عن نواياها الحقيقية بتطبيق اتفاقية "سايكس-بيكو" السرية (1916) التي كانت تقضي بتقسيم المشرق العربي بين بريطانيا وفرنسا، ووعدها بلفور (1917) الذي وعد بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين¹.

شعر لورنس بالخيانة والعار، وانهيار نفسياً، فغادر دمشق بعد أيام قليلة من دخولها، عائداً إلى لندن، لكنه عاد ليشترك في مؤتمر الصلح بباريس (1919) حيث حاول، دون جدوى، الدفاع عن مطالب العرب في الاستقلال، وساهم في التسويات التي أوصلت فيصل إلى عرش العراق وعبد الله إلى عرش شرق الأردن، مقابل تخليه عن مطالب سوريا لفرنسا وفلسطين لبريطانيا².

وصفوة القول أن الجدل لا زال قائماً حول شخصية لورنس: هل كان بطلاً أسطورياً قاد العرب إلى النصر، كما صور نفسه في مذكراته وأسهم في الترويج لذلك أصدقاؤه الصحفيون مثل "لويل توماس"؟ أم كان خائناً مزدوجاً خدم مصالح بلاده على حساب استقلال العرب، وكذب ولفق التقارير واختلق الانتصارات ليضخم من مكانته ويحقق أهدافه الشخصية؟ الحقيقة التاريخية، كما يبدو من مراجعة وثائقية متوازنة، تقع في منتصف الطريق: كان لورنس ضابطاً استخباراتياً ذكياً ومبدعاً، استثمرته الإمبراطورية البريطانية في لعبة كبرى لتفتيت الدولة العثمانية، وكان في الوقت نفسه رومانسياً مأساوياً آمن بصدق بالقضية العربية، لكنه اصطدم بالواقع الإمبريالي البارد، ودفع ثمن ذلك انهياراً نفسياً ومأساة شخصية حتى وفاته³.

¹ علي المحافضة، أبحاث في تاريخ العرب المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998، ص 29

² سليمان موسى، الحركة العربية المرحلة الأولى للنهضة العربية (1908-1924)، دار النهار للنشر، 2002، الأردن، ص 416-420 .

³ محمد فاروق الخالدي، المؤامرة الكبرى على بلاد الشام، دار الراوي للنشر والتوزيع، ط 1، السعودية، 2000، ص 200-

لم يكن الهلال الخصيب مجرد مصطلح جغرافي بل مثّل وحدة حضارية واستراتيجية متكاملة أسهمت خصائصها الطبيعية والبشرية في جعلها محوراً للتنافس الدولي خاصة قبيل الحرب العالمية الأولى، فقد ساعد موقعها الحيوي وثرواتها الطبيعية وتنوعها السكاني على جذب اهتمام القوى الاستعمارية في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تعاني من الضعف، مما أتاح المجال لبروز الحركات القومية العربية التي سعت إلى تحقيق الاستقلال والوحدة.

كما أن ظهور توماس إدوارد لورانس لم يكن حدثاً معزولاً بل جاء في إطار استراتيجية بريطانية محكمة هدفت إلى توظيف الثورة العربية الكبرى لخدمة مصالحها في المنطقة، وقد لعب لورانس دوراً مركباً جمع بين العمل الاستخباراتي والتخطيط العسكري في ظل علاقة معقدة مع القيادة العربية خاصة الأمير فيصل، وهو ما يعكس طبيعة التداخل بين الطموحات العربية والمشاريع الاستعمارية، وعليه فإن فهم هذه المرحلة يقتضي قراءة نقدية متوازنة تكشف عن تداخل العوامل الداخلية والخارجية في رسم ملامح النظام الإقليمي الحديث في المشرق العربي.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات
لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

تُعدّ مذكرات الضابط البريطاني توماس إدوارد لورانس من أبرز الوثائق الأدبية والسياسية التي رصدت أحداث الحرب العالمية الأولى في منطقة الهلال الخصيب، فمن خلال مؤلّفه الرئيسيّ، "أعمدة الحكمة السبعة" و"ثورة في الصحراء"، فضلاً عن رسائله الشخصية التي تُرجمت ونشرت، قدّم لورانس شهادةً حيّةً على الوقائع السياسية والعسكرية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة إبان تلك المرحلة الفارقة من تاريخها¹.

وقد اختار لورانس منطقة الهلال الخصيب بوصفها مسرحاً رئيسياً لنشاطه الاستخباراتي والعسكري، وهو ما جعله قريباً من تفاصيل البنية الاجتماعية والسياسية لتلك البلاد، فكانت كتاباته مزيجاً دقيقاً بين التقرير الميداني والانطباع الذاتي مما يُضفي عليها أهميةً مزدوجة للباحثين في التاريخ وفي الأدب معاً، يقول لويل ثوماس في كتابه "لورانس في بلاد العرب" إن لورانس لم يكن مجرد مستشار عسكري بل كان رجلاً يحمل رؤية متكاملة عن مستقبل المشرق العربي.²

¹ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 47.

² لويل ثوماس، لورانس في بلاد العرب، تر: عادل زعيتر، مكتبة المعارف، بيروت، 1968، ص 23.

المبحث الأول: البنية السياسية والاجتماعية للمنطقة في ضوء المذكرات

لم يكن لورانس في حقيقته مجرد رحّالة أو رجل استخبارات، بل مثل مراقباً أنثروبولوجياً شديد الدقة للبنى الاجتماعية والسياسية في الهلال الخصيب، وقد أتاحت له إقامته الطويلة في بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية أن يدوّن ملاحظات بالغة الأهمية حول أوضاع السكان، ومواقفهم من السلطة العثمانية، وتعتيدات العلاقات القبلية والمذهبية والعرقية في المنطقة.

المطلب الأول: أوضاع بلاد الشام والعراق كما وصفها لورانس

أولاً: بلاد الشام في عيون لورانس

عندما وصل لورانس إلى بلاد الشام سنة 1909م كان اهتمامه منصباً أساساً على البحث الأثري ودراسة الحصون الصليبية، وهو ما أتاح له التعرف الميداني على جغرافية المنطقة وسكانها، غير أن هذه الخبرة الميدانية نفسها أصبحت ذات قيمة استراتيجية للسلطات البريطانية مع اقتراب الحرب العالمية الأولى، فانتقل تدريجياً من النشاط الأكاديمي إلى العمل الاستخباراتي والعسكري، حيث التحق بفرع الخرائط ثم بالمخابرات البريطانية في القاهرة قبل أن ينضم إلى المكتب العربي، الأمر الذي جعل اهتمامه بقضايا المنطقة يتجاوز البعد العلمي إلى الانخراط المباشر في أحداثها السياسية والعسكرية¹.

وردت سوريا في كتابات توماس إدوارد لورنس بوصفها إحدى المناطق المرتبطة بمسار الثورة العربية وتطوراتها العسكرية والسياسية، ففي حديثه مع الأمير فيصل أشار إلى أهمية دمشق بقوله: "إن المقام طيب هنا بالطبع لكنه بعيد جداً عن دمشق"² كما ربط العمليات العسكرية بمجال جغرافي أوسع يشمل بلاد الشام، مؤكداً أن «فلسطين وسوريا» تمثلان جزءاً من نطاق الحركة العربية، وأنه لا ضير من بقاء الخطوط الحديدية في «ما وراء الأردن

¹ عبد الودود، لورانس العرب، مجلة الوعي، ع 246، وزارة الاعلام اللبنانية، 2007، متوفر على:

<https://alwaie.muslimworld.today/contact>

² هنري لورنس، ثورة في الصحراء، ترجمة عبد الله الجندي، دار اليقظة، دمشق، 1985، ص 48

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

وفلسطين وسوريا» ما دامت تخدم الأهداف العامة للثورة¹، وفي سياق وصفه للأوضاع السكانية والثقافية في المنطقة، ذكر أن «اللغة العربية هي السائدة في كل من سورية وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية»²، كذلك أشار إلى الأحداث التي شهدتها دمشق خلال الحرب العالمية الأولى، متحدثاً عن «الزعماء السوريين الذين أعدمهم جمال باشا في دمشق»³، وهو ما يعكس حضور المدينة في روايته لأحداث المرحلة.

كان لورانس يُفرّق تفریقاً واضحاً بين حضر بلاد الشام وبدوها، فأما الحضر وفي مقدمتهم تجار دمشق وحلب فقد وصفهم بأنهم شديداً الحذر يميلون إلى المهادنة مع الوجود العثماني ريثما تتضح الأمور، وأما البدو فقد رأهم جاهزين للانخراط في أي مشروع يُعيد إليهم كرامتهم المنتزعة، حيث يقول في الرسائل التي ترجمها الدكتور عبد المنعم الناصر: "حين يشعر العربي أن المستقبل بيده، لا قوة على وجه الأرض تستطيع وقف حركته".⁴

وفي وصفه للحالة الاقتصادية أشار لورانس إلى أن المدن الشامية عانت في سنوات الحرب من شحّ حاد في الموارد وتفاقم الحالة المعيشية جراء السياسات العثمانية التي أعادت توجيه الثروات والموارد نحو الجبهات العسكرية، وذكر في مراسلاته الرسمية الموجهة إلى القاهرة أن الأسعار في دمشق ارتفعت ارتفاعاً جنونياً، وأن الأمراض والمجاعات حصدت أرواحاً كثيرة، مما أسهم في زعزعة ولاء السكان للإدارة العثمانية⁵.

ويصف يوسف الحكيم في مذكراته بيروت وسوريا الصورة الاجتماعية من خلال رصد أحوال النخبة الحضرية في المدن الشامية إبان الحرب إذ عاشت هذه الفئة حالة من القلق الدائم بين ولاءات متعارضة، تحت وطأة رقابة عثمانية مشددة بلغت ذروتها في عهد جمال

¹ المصدر نفسه، ص 105

² هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 11-12.

³ المصدر نفسه، ص 58

⁴ مختارات من رسائل لورانس، تر: الدكتور عبد المنعم الناصر، دار الرائد العربي، بيروت، 1983، ص 15.

⁵ مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 28-30.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

باشا¹ الذي شهدت سنوات حكمه (وخاصة عام 1916) إعدامات طالت عدداً من أبرز رجالات النخبة، وقد أنتج هذا المناخ من الخوف السياسي سلوكاً مزدوجاً تمثل في إظهار الولاء للسلطة القائمة في العلن مع بقاء ميول معارضة أو ثورية في الخفاء.²

كما انتبه لورانس إلى التعدد الطائفي في بلاد الشام من المسلمين السنة إلى العلويين والدروز والمسيحيين بمذاهبهم المختلفة، ورصد في كتاباته كيف استغل العثمانيون هذا التنوع لتعميق الانقسامات وإذكاء الخلافات حتى تظل الأقليات خاضعة لهم خوفاً من الأغلبية والأغلبية تهاب بطشهم المباشر، حيث لمح هنري لورنس في كتابه "الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية" إلى أن هذه السياسة العثمانية لم تكن الا نموذجاً تقليدياً لسياسة "فرق تسد" التي مارستها الإمبراطوريات الكبرى في المناطق المتعددة الهويات.³

ثانياً: العراق في مذكرات لورانس

لم يرق لورانس في العراق بالقدر ذاته الذي أقام فيه في بلاد الشام أو الحجاز غير أن اطلاعه على التقارير الاستخباراتية وزياراته الاستطلاعية أكسبته معرفة وافية بأحوال هذه المنطقة، حيث أشار في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" إلى العراق باعتباره قضية استراتيجية بالغة الأهمية إذ يتقاطع فيها النفوذ البريطاني مع الطموحات العربية مع الإرث العثماني.⁴ أما من حيث البنية الاجتماعية قدّم حنا بطاطو في دراسته الموسوعية عن العراق تحليلاً تفصيلياً للتركيب الطبقي والاجتماعي في أواخر العهد العثماني، مبرزاً تعدد المكونات السكانية بين العرب (سنة وشيعة) والأكراد والتركمان إضافة إلى الأقليات المسيحية واليهودية مع

¹ جمال باشا، الملقب بالسفاح كان من أحد الضباط المنتمين الى جمعية الاتحاد والترقي، ولد في اسطنبول 1872 م، قام بشنق نابغي المسلمين في بيروت، حيث أعدم أكثر من 800 شخصية عربية، وكان قائدا عسكريا عثمانيا على سوريا، (ينظر، خالد السبول، الهاشميون من حكم الامارة العثمانية الى تأسيس الممالك الهاشمية، دار الأهلية، (دب)، 1997 م، ص 105).

² يوسف الحكيم، بيروت وسوريا، دار النهار بيروت، 1966، ص 112.

³ هنري لورنس، اللعبة الكبرى: الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، تر: سحر توما، دار الفارابي، بيروت، 2012، ص 127.

⁴ نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب 1900-1930، مصدر سابق، ص 145-147.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

اختلاف أنماط علاقتها بالإدارة العثمانية ودرجات تأثيرها السياسي.¹

وفي السياق ذاته تُظهر الدراسة الوثائقية التي أنجزها نجدة فتحي صفوة حول العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب أن الإدارة العثمانية في ولايتي بغداد والبصرة كانت تعاني من هشاشة بنيوية متزايدة ناجمة عن البعد الجغرافي عن المركز، وضعف الموارد، وتنامي حركات التمرد في الأرياف والمناطق البدوية، ما انعكس في تراجع فعالية السيطرة الإدارية والأمنية.²

أما على مستوى المكوّن الكردي فبيّن كمال مظهر أحمد في دراسته عن كردستان خلال الحرب العالمية الأولى أن الموقف الكردي لم يكن موحدًا بل شكل ثلاث اتجاهات: أولاً التعاون مع البريطانيين، ثانياً: المقاومة المسلحة، ثالثاً: الحياد النسبي، وهو ما يعكس تعقيد البنية الاجتماعية والسياسية في المنطقة.³

ويخلص هذا التعدد في القراءات إلى صورة مركبة للعراق بوصفه مجالاً تتداخل فيه هويات متعددة وتوازنات متغيرة، وقد رأى لورانس أن هذا التنوع رغم غناه يشكل في الوقت نفسه تحدياً أمام تشكّل مشروع سياسي عربي متماسك، وهو ما عبّر عنه في إحدى رسائله بقوله إن العراق "دولة في طور التشكّل، لم يكتمل فيها بعد الوعي الجمعي الذي تحتاجه الأمم لإنجاز تحولات كبرى".⁴

ورصد لورانس الأهمية الاقتصادية لوادي الرافدين لا سيما المناطق الزراعية الممتدة على ضفتي دجلة والفرات والتي كانت تُزوّد الإمبراطورية العثمانية بجزء لا يُستهان به من موادها الغذائية، وأشار إلى أنّ الزحف البريطاني نحو بغداد لم يكن مدفوعاً بالدوافع الإنسانية

¹ حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، تر: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1990، ج 1، ص 178-180.

² نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب 1900-1930، المؤسسة العربية، بيروت، 1984، ص 145-147.

³ كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، دار الحرية، بغداد، 1977، ص 56-58.

⁴ مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 52.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

التي روجت لها لندن، بقدر ما كان محكومًا بالرغبة في بسط السيطرة على هذا الخزان الاقتصادي الاستراتيجي¹.

والجدير بالذكر أن لورنس أبدى في كتاباته المتأخرة تحفظات جوهرية على الطريقة التي أدار بها البريطانيون ملف العراق بعد الحرب إذ رأى أن تجاهلهم للطموحات الوطنية العراقية كان خطأً سياسيًا فادحًا ستتكشف عواقبه على مدار السنوات القادمة، وقد تحقّق كثير مما أُنذر به في ثورة العشرين (1920).²

المطلب الثاني: العلاقة بين القبائل العربية والسلطة العثمانية

أولاً: طبيعة الحكم العثماني في الأرياف والبادي

كان النظام العثماني يُقيم علاقاته مع القبائل العربية على أساس من التوازن الدقيق بين التهريب والترغيب، فمن جهة كانت السلطات العثمانية تُجنّد زعماء القبائل في وظائف إدارية وتمنحهم صلاحيات واسعة على مناطقهم، ومن جهة أخرى كانت تستحضر الأمن العسكري كلما شعرت بتهديد لنفوذها.³

قد رصد لورانس هذه المعادلة بقدر كبير من الدقة؛ ففي كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" يُبين أن القبائل التي فضلت التسوية مع السلطان احتفظت بهامش من الاستقلال الداخلي، بينما تعرّضت القبائل المتمردة لحملات تأديبية متكررة، ويخلص إلى أنّ هذا النظام المترهل لم يؤدّ إلا إلى تراكم مشاعر السخط والضغائن الكامنة، التي انفجرت لاحقاً بمجرد توقّر الظروف الملائم.⁴

ويشير لويل ثوماس إلى أن لورانس كان من أوائل المراقبين الغربيين الذين نبّهوا إلى أن الولاء القبلي لا يُشترى بالهبات المؤقتة بل يُكتسب بالإيفاء بالالتزامات على المدى البعيد، وهذا ما أدركه لورانس حين بنى استراتيجيته في العمل مع شريف مكة على وعود جوهرية لا

¹ هنري لورنس، ثورة في الصحراء، مصدر سابق، ص 38-40.

² مايكل آش، لورانس ملك العرب غير المتوج، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1963، ص 34.

³ هنري لورنس، اللعبة الكبرى: الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 112.

⁴ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 115-117.

مجرد مكافآت مادية.¹

ثانياً: الصدع الأساسي بين القبيلة والدولة

قدّم لورانس في كتاباته تحليلاً عميقاً للتناقض البنيوي بين منطق القبيلة ومنطق الدولة المركزية؛ فالقبيلة تقوم على روابط النسب والعصبية العائلية، وتستند إلى منظومة من القيم قوامها الشرف والثأر والولاء للجماعة، بينما تسعى الدولة المركزية إلى تكريس سلطة مجردة تقوم على الإدارة المنظمة والحماية والنظام الأمني الموحد، وقد ظلّ الاحتكاك بين هذين النموذجين سمةً ملازمة للحياة السياسية والاجتماعية في بلاد الشام والعراق.²

ويضيف لورنس في كتاباته إلى أنّ العثمانيين أخفقوا في تحديث علاقتهم بالقبائل العربية لأنهم سعوا إلى إدماجها داخل جهاز بيروقراطي مركزي لا ينسجم مع بنيتها التقليدية بدل البحث عن صيغ تفاهم أكثر مرونة وتوافقاً، ومن هذا المنظور لم ينظر لورانس إلى الثورة العربية بوصفها مجرد تمرد عسكري بل باعتبارها تعبيراً عن تصادم حضاري بين نمطين متباينين من التنظيم السياسي: منطق الدولة المركزية الحديثة، ومنطق البنية القبلية القائمة على العصبية والولاء المحلي.³

لاحظ سليمان موسى في دراسته المفصلة عن الثورة العربية الكبرى ظاهرةً بالغة الأهمية هي ما يُسمّىها "القبائل المترددة": وهي تلك التي كانت تُبدي الولاء للعثمانيين في العلن بينما تُرسل مبعوثيها سرّاً إلى معسكر الثورة، وكان هذا السلوك المزدوج ليس ضعفاً أخلاقياً بل استراتيجية بقاء مدروسة في ظل حالة الضبابية السياسية التي سادت أعوام الحرب.⁴

وهو ما لاحظته لورانس في أنّ بعض القبائل انتهجت سياسة مزدوجة في التعامل مع الصراع القائم؛ فأظهرت الولاء للعثمانيين في العلن، بينما أبقت قنوات الاتصال مفتوحة مع الشريف حسين في الخفاء، ويصف لورانس هذا السلوك في مذكراته بما يشبه «سياسة البقاء»،

¹ لويل ثوماس، لورانس في بلاد العرب، مصدر سابق، ص 67.

² هنري لورنس، ثورة في الصحراء، مصدر سابق، ص 74-76.

³ هنري لورنس، الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 178.

⁴ سليمان موسى، الثورة العربية الكبرى: الحرب في الحجاز 1916-1918، د د ن، عمان، 1989، ص 34-36.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

أي الاستراتيجية التي اعتمدتها القبائل للتكيف مع واقع سياسي شديد التقلب.¹

ثالثاً: أنماط التفاوض القبلي مع القوة

يُشير عبد الوهاب الكيالي في موسوعة السياسة إلى أن مفهوم "الولاء المشروط" في الثقافة القبلية العربية كان مفهوماً راسخاً ومشروعاً: فالقبيلة لا تُلزم أبناءها بالموت لحساب أطراف خارجية إلا حين تُقنّع بأن هذا الالتزام يصبّ في مصلحتها الاستراتيجية البعيدة، وهو مقياس براغماتي صارم لا تحكمه العاطفة وحدها.²

وهذا ما أدركه لورانس منذ وقت مبكر أنّ نجاح أي مشروع عسكري في الهلال الخصيب لا يتحقق بالقوة المجردة بقدر ما يرتبط بكسب ولاء القبائل واستيعاب حساسياتها الاجتماعية، ومن هذا الإدراك صاغ ما يمكن تسميته بـ "دبلوماسية البادية" وهي سياسة تقوم على المزج بين العطاء المادي، والاعتراف بالمكانة الرمزية للقبائل، وتوزيع مجالات النفوذ بصورة تضمن التوازن بينها، ويعبّر عن هذه الفكرة في إحدى رسائله بقوله: "إنّ القبيلة تمنحك رجالها إذا منحتها كرامتها، وتحجبهم عنك إذا شعرت في سلوكك باحتقار لها".³

كما سجّل لورانس حالات متكررة لزعماء قبائل التحقوا بالثورة العربية ثم تراجعوا عنها عندما بدا لهم أنّ حجم الالتزامات يفوق ما يمكن تحصيله من مكاسب سياسية أو مادية، وقد مثّلت هشاشة الولاءات هذه أحد أبرز الإشكالات التي اعترضت تنظيم القوات غير النظامية، وفي هذا السياق قدّم لورنس قراءة أوسع للظاهرة مفسّراً إياها في ضوء البنية التاريخية للقبيلة وآليات اشتغال السلطة في المجتمعات الشرق أوسطية.⁴

وعليه فقد كشفت رسائل لورانس الشخصية عن إحساسٍ متنامٍ بالتناقض الداخلي إزاء الوعود التي كان يقدّمها للقبائل العربية؛ إذ كان يدرك أنّ كثيراً من التعهدات الصادرة باسم التاج البريطاني قد لا تجد طريقها إلى التنفيذ بعد انتهاء الحرب، وقد ولّد هذا الإدراك لديه أزمة

¹ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 138.

² عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979، مج 3، ص 456.

³ مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 63.

⁴ هنري لورنس، اللعبة الكبرى الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 194.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

أخلاقية عميقة، تتبدّى بوضوح في الصفحات الأخيرة من "أعمدة الحكمة السبعة" حيث يطغى الشعور بالخذلان والشك في جدوى ما قام به".¹

¹ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 169.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

المبحث الثاني: الثورة العربية الكبرى وانعكاسها على جغرافية الهلال الخصيب

تشكل الثورة العربية الكبرى (1916-1918) إطاراً مرجعياً الأهم في كتابات لورانس، إذ مكّنه حضوره الميداني من أداء دور مزدوج يجمع بين المراقبة والمشاركة الفعلية، وقد جعل هذا الموقع الاستثنائي من شهادته مادة ذات أهمية في دراسة تطورات الثورة وانعكاساتها على البنية الجيوسياسية للهلال الخصيب والتحولت في موازين القوى الإقليمية

المطلب الأول: مسار العمليات العسكرية في الحجاز وبلاد الشام

أولاً: اندلاع الثورة وانطلاق العمليات من الحجاز

اندلعت الثورة العربية الكبرى في 5 جوان 1916 حين أعلن شريف مكة الحسين بن علي شريف مكة نداءه الثوري من مكة معلناً التمرد على الدولة العثمانية، وفي تلك الفترة كان توماس إدوارد لورنس ضابطاً في جهاز الاستخبارات البريطانية بالقاهرة يتابع تطورات الموقف بوصفه خبيراً ميدانياً مطلعاً على تفاصيله، وقد وصف هذا الحدث في كتابه "ثورة في الصحراء" باعتباره لحظة مفصلية في تاريخ العرب الحديث إذ رآه انبثاقاً مبكراً للطموح القومي من رحم حالة التفكك التي كانت تعيشها الدولة العثمانية.¹

وفي سياق التحضيرات التي سبقت اندلاع الثورة تناول أمين سعيد المراسلات الحسينية-البريطانية التي جرت خلال العامين السابقين، مبرراً طبيعة التفاهات التي قامت بين الشريف الحسين والمندوب البريطاني في القاهرة، وقد تضمنت هذه المراسلات التزامات بريطانية بدعم استقلال عربي في مناطق محددة غير أن صياغتها بقيت عمداً غامضة وهو ما جعلها لاحقاً أحد مصادر التوتر السياسي بين الطرفين.²

ومع انتقال الثورة للميدان وصل توماس إدوارد لورنس إلى جدة في أكتوبر 1916 ضمن بعثة بريطانية هدفها تقييم تطورات الوضع في الحجاز، وسرعان ما لفت انتباهه الأمير فيصل بن الحسين (أنظر الملحق رقم 05) بوصفه شخصية سياسية قادرة على توحيد

¹ هنري لورنس، ثورة في الصحراء، مصدر سابق، ص 89.

² أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى: تاريخها وأسرارها، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1934، ج 1، ص 178-180.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

التشكيلات القبلية المتفرقة وإعادة توجيهها نحو هدف مشترك، وفي هذا السياق تذكر بعض الروايات الواردة في كتاب "لورنس ملك العرب غير المتوج" أن لورانس عبّر عن ارتياحه قائلاً: "وجدت أخيراً صاحبي" في إشارة إلى أنه رأى في فيصل القائد الذي يمكن أن ينسجم مع تصوراته حول إدارة التحالف العربي-البريطاني خلال الثورة.¹

اتسمت المرحلة الأولى من العمليات في الحجاز بضعف الإمكانيات المادية والتنظيمية للقوات العربية غير النظامية ما جعلها تواجه صعوبات كبيرة في مجابهة القوات العثمانية النظامية المتمركزة في المدينة المنورة تحت قيادة "فخري باشا" الذي اشتهر بصموده في حصارٍ طويل استمر حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقد فرض هذا الواقع الميداني على قوات الثورة إعادة النظر في أساليبها القتالية فانقلت تدريجياً من محاولة الحصار التقليدي إلى تبني نمط حرب العصابات القائمة على الحركة السريعة والضربات الخاطفة في عمق خطوط الإمداد.²

وبدأت تتبلور ملامح ما يمكن تسميته بالعقيدة العسكرية اللورانسية كما عرضها تفصيلياً في "أعمدة الحكمة السبعة" والقائمة على مبادئ الحركة السريعة وتفاذي المواجهة المباشرة مع القوات النظامية، والتركيز بدلاً من ذلك على استهداف خطوط المواصلات والإمداد، وقد تجسّد هذا التوجه عملياً في سلسلة العمليات التي استهدفت خط السكة الحديدية الحجازية الذي كان يربط الحجاز ببلاد الشام ويشكّل شرياناً حيويّاً لإمداد الحامية العثمانية في المنطقة.³ (أنظر الملحق رقم 04)

ومن زاوية أخرى يرى "محمود ثابت الشاذلي" أن لندن لم تكن تتعامل مع الثورة العربية بوصفها حركة تحررية خالصة بل كانت توظّفها ضمن حسابات إمبراطورية أوسع تتمثل في استهداف الخط الحديدي الحجازي وتهديد الجناح الجنوبي الشرقي للجيش العثماني بما يساهم

¹ مايكل آشور، مصدر سابق، ص 56-58.

² هنري لورنس، ثورة في الصحراء، مصدر سابق، ص 108.

³ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 183-185.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

في تخفيف الضغط عن الجبهات الأوروبية خلال الحرب العالمية الأولى.¹

ثانياً: معركة العقبة وتحول الثورة نحو الشمال

شكّلت عملية العقبة في جويلية 1917 نقطة تحوّل استراتيجية جوهريّة في مسار الثورة، فبعد عبور الأراضي الجرداء القاحلة في غرة من الأتراك الذين لم يتصوّروا هجوماً قادمًا من الخلف، سقطت ثغرة العقبة الاستراتيجية بيسر لافت، وكان هذا النجاح يعني أن الثورة قادرة على التمدد نحو الشمال وربط عملياتها مع الأجنحة البريطانية المتقدمة.²

بينما يشير سليمان الموسى إلى أن عملية العقبة كانت إنجازاً عسكرياً بقدر ما كانت إنجازاً دبلوماسياً، إذ يعود الفضل الأكبر فيها إلى قدرة لورانس على استمالة "عودة أبو تايه شيخ" الحويطات الملقّب بـ"أسد البادية"، وإقناعه بقيادة الهجوم الذي كان يحتاج معرفة بالتضاريس لا يملكها إلا أبناء البادية، وهذا النموذج التشاركي هو ما جعل الثورة تتجاوز مجرد كونها مشروعاً بريطانياً بالوكالة.³

وكانت من تداعيات هذا الحدث حسب هنري لورانس أنّ سقوط العقبة لم يكن مجرد إنجاز عسكري بل مثّل أيضاً تحوّلًا في الرؤية البريطانية تجاه مجريات الثورة إذ بدأت لندن تنظر إلى الجيش العربي المتجه شمالاً بوصفه ورقةً سياسية مهمة في سياق الترتيبات المرتقبة لما بعد الحرب وفي إطار التنافس على مناطق النفوذ، ومن هنا تداخل البعد العسكري بالاعتبارات السياسية لتغدو الثورة أداة ذات طبيعتين متداخلتين: بعدّ عربي يسعى إلى التحرر والاستقلال، وبعدّ بريطاني يوظّفها في إعادة تشكيل الخريطة الجيوسياسية للمنطق.⁴

ومن العقبة انطلق لورانس على رأس مجموعات من المقاتلين العرب في جولات استطلاعية موسّعة شملت مناطق شرق الأردن وحوارن وجنوب بلاد الشام، وقد دوّن في

¹ محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية 1299-1923، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989، ص 278.

² هنري لورانس، ثورة في الصحراء، مصدر سابق، ص 74-76.

³ سليمان الموسى، لورنس والعرب: وجهة نظر عربية، وزارة الثقافة الأردنية، الأردن، 2017، ص 67.

⁴ هنري لورنس، اللعبة الكبرى الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 228.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

مذكراته "أعمدة الحكمة السبعة" تفاصيل دقيقة عن هذه التحركات، متضمنة ملاحظات جغرافية وإثنوغرافية ذات قيمة توثيقية، تعكس بدقة ملامح المشهدين البشري والطبيعي في المنطقة خلال تلك المرحلة الانتقالية.¹

ثالثاً: العمليات العسكرية في بلاد الشام والتقدم نحو دمشق

تزامنت عمليات الجيش العربي في شرق الأردن وجنوب سوريا مع تقدم القوات البريطانية بقيادة الجنرال "إدموند اللنبى (Allenby)"² من الجهة الجنوبية الغربية، وفي هذا السياق اضطلع لورانس بدور تنسيقي بين التحركين ساعياً إلى تحقيق تزامن ميداني يضمن دخول الجيش العربي إلى دمشق قبل القوات البريطانية بما يحفظ للعنصر العربي حضوراً رمزياً في لحظة الحسم، وقد كشف هذا التنافس غير المعلن على مدينة دمشق عن تعقيد الحسابات السياسية الكامنة خلف التحالف العسكري، حيث تداخلت الأهداف العملية مع اعتبارات النفوذ والشرعية في مرحلة ما بعد الحرب.³

وفي الفترة الممتدة بين ربيع وخريف 1918 شهدت المنطقة من شرق الأردن مروراً بحوران إلى دمشق سلسلة من العمليات العسكرية التي نفذتها القوات العربية غير النظامية بصورة متزامنة ومنسقة، وقد استهدفت هذه العمليات خطوط السكك الحديدية في مواقع متعددة، وأسفرت عن انهيار عدد من الحاميات العثمانية إلى جانب بروز مناطق نفوذ محلية باتت تُدار فعلياً من قبل قادة موالين للثورة، ويعرض توماس إدوارد لورنس في "أعمدة الحكمة السبعة" هذا التحول بوصفه مرحلة انتقالية في بنية السلطة المحلية، قرأ فيها ملامح أولية لتشكل كيان

¹ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 214-216.

² إدموند اللنبى (1861-1936) قائد وسياسي بريطاني، قاد الحملة البريطانية في فرنسا الحرب العالمية الأولى من مصر، و إشترك في حرب جنوب إفريقيا، تولى منصب القائد العام لقوات الشرق الأوسط عام 1917م جعل القاهرة مركز لقيادته، كما تولى مهمة المندوب السامي البريطاني لمصر خلفاً لبرجينا لجد ونكت 1919 حتى 1925 (للمزيد ينظر: سعيد بن عبد الرحمن البازعي، الموسوعة العربية العالمية، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999، ص ص 70-

³ لويل ثوماس، لورانس في بلاد العرب، مصدر سابق، ص 138.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

سياسي عربي ناشئ كان يتصوره في إطار مشروعه للثورة.¹

ومع تراجع القوات العثمانية تحت وطأة الضربات المتزامنة بدأت مدن بلاد الشام تشهد تحولات متسارعة في مواقفها السياسية، إذ أعلنت دير الزور وتدمر ودرعا وصولاً إلى دمشق انضمامها إلى الحركة الثورية في موجة امتدت بسرعة لافتة، وقد أثار هذا التسارع دهشة لورانس نفسه الذي عبّر عن ذلك بقوله: "لم أتصور أن الانهيار سيكون بهذه السرعة والشمولية".²

دخلت دمشق ليلة الأول من أكتوبر 1918 عقب انسحاب القوات العثمانية بشكل متسارع من المدينة، وكان لورانس شاهداً على دخول الأمير "فيصل بن الحسين" إليها وسط حشود غفيرة من السكان المرحّبين، وقد مثّلت هذه اللحظة ذروة رمزية في مسار الثورة العربية إذ يصفها في "أعمدة الحكمة السبعة" بأنها: "كانت أسعد لحظات حياته وأكثرها مرارة في آنٍ واحد؛" أسعدها لأنها جسّدت تحقق الهدف الذي سعت إليه الحركة العربية، وأمرّها لأنه كان يدرك في الوقت نفسه أن الترتيبات السياسية اللاحقة ستقوض كثيراً من تلك الآمال.³

المطلب الثاني: أثر الثورة على موازين القوى داخل المنطقة

أولاً: تحوّل موازين القوى القبلية والإقليمية

أسهمت الثورة العربية الكبرى في إحداث تحولات عميقة في موازين القوى القبلية والإقليمية، حيث أن القبائل التي انخرطت في الثورة اكتسبت مكانةً جديدةً وحيازةً من الأسلحة وثقلاً سياسياً في مفاوضات ما بعد الحرب، في حين وجدت القبائل التي بقيت على الحياد أو قاتلت مع العثمانيين نفسها في وضع أدنى في المشهد الجديد.⁴

ويشير لورانس في رسائله إلى مفارقة لافتة أعقبت انتهاء الحرب إذ وجد عدد من زعماء القبائل الذين ساندوا الثورة العربية أنفسهم أمام واقع سياسي جديد لم يكن في الحسبان، فقد

¹ هنري لورنس، ثورة في الصحراء، مصدر سابق، ص 143.

² مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 104.

³ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 440-442.

⁴ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مرجع سابق، ج 2، ص 67.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

بدأت سلطة الشريف إلى جانب القوى الأوروبية في إعادة ضبط الأدوار التقليدية للزعامات القبلية وتقليص هامش استقلالها التاريخي، وقد أفضى هذا التحول إلى حالة من خيبة الأمل لدى بعض هذه القيادات انعكست في صور من التوترات والتمردات المحلية المحدودة التي ظهرت في مناطق متفرقة.¹

وعلى المستوى الإقليمي أفرزت الثورة العربية الكبرى واقعا جيوسياسيا جديدا تمثل في تراجع النفوذ العثماني في المناطق العربية قبل السقوط الرسمي للدولة العثمانية، فقد تحولت بلاد الشام الجنوبية وشرق الأردن والحجاز إلى مناطق نفوذ عربي فعلي رغم بقاء وضعها السياسي النهائي محلّ تنازع بين القوى الدولية، وقد رصد هذا التحول بدقة المؤرخ هنري لورنس ضمن تحليله لبنية الصراع الدولي على المشرق العربي وتوازنات ما بعد الحرب.²

ثانياً: التناقض بين وعود لورانس والمخططات الاستعمارية

والحق أن الصدمة الكبرى للعرب لم تكن في اتفاقية سايكس-بيكو وحدها، بل كانت في التناقض الصارخ بين الخطاب الرسمي البريطاني-الفرنسي الذي أعلن دعم الشعوب المتحررة، وبين الممارسة الفعلية التي أعادت رسم الخرائط بمنطق استعماري صريح.³ يمثل هذا الجانب أحد أكثر الجوانب إثارة للجدل في سيرة لورانس وكتاباتاته، فمن جهة كان يسعى إلى إقناع الزعماء العرب بأن بريطانيا ستدعم قيام كيان عربي مستقل، بينما كان على دراية في الوقت نفسه بالاتفاقيات السرية التي أبرمتها القوى الحليفة لتقاسم النفوذ في المنطقة، وفي مقدمتها اتفاقية سايكس-بيكو (1916)، وقد وضع هذا التناقض لورانس في موقع إشكالي بين الخطاب السياسي الموجّه للحلفاء العرب والواقع الدبلوماسي الذي كانت تعيد من خلاله القوى الاستعمارية رسم خرائط النفوذ في المشرق العربي.⁴

¹ مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 134.

² هنري لورنس، اللعبة الكبرى الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 259.

³ جورج أنطونيوس، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، تر: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، 1966، ص 361.

⁴ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 231.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

يكشف لويل توماس في كتابه "لورنس في بلاد العرب" أنّ لورانس كان يدرك خلال فترة الثورة طبيعة الدور المزدوج الذي اضطلع به؛ إذ جمع بين موقعه بوصفه خادماً للمصالح البريطانية من جهة، ومتفاعلاً مع الطموحات العربية من جهة أخرى، وقد سعى إلى التعامل مع هذا التداخل عبر تبني تصور مفاده أن المكاسب الميدانية التي تتحقق على الأرض يمكن أن تُقابل جزئياً ما قد يخسره العرب في مسار التفاوضات السياسية اللاحقة بعد الحرب.¹

وتوثّق رسائل لورانس المترجمة تدرّج هذه الإشكالية الأخلاقية في وعيه عبر مراحل الحرب، ففي رسائله الأولى يظهر قدر من الثقة بإمكانية الوفاء بالوعد الموجهة للقبائل العربية، قبل أن يبدأ هذا اليقين في التراجع تدريجياً مع منتصف الحرب حيث يتسرب الشك إلى خطابه في الرسائل، أما في مراحلها المتأخرة فتتخذ هذه الرسائل طابعاً أقرب إلى إدراك ضمني للفجوة المتزايدة بين الوعد والواقع السياسي المقبل، وقد أشار الدكتور عبد المنعم الناصر في مقدمة الترجمة إلى أن هذا التحول في لغة الرسائل يمنحها قيمة مزدوجة، بوصفها وثيقة ذات بعد تاريخي من جهة ومصدراً يعكس تطوراً نفسياً وفكرياً من جهة أخرى.²

وأفضت الكشف اللاحقة المتعلقة باتفاقية سايكس-بيكو ووعد بلفور إلى تعميق أزمة الثقة بين الطرف العربي والحكومة البريطانية، وفي خضم هذا الجدل، سعى لورانس إلى الدفاع عن المطالب العربية أمام قيادته في القاهرة ولندن، مطالباً بالوفاء بالالتزامات التي قُطعت لهم خلال فترة الحرب، غير أنّ مواقفه هذه لم تُثمر نتائج ملموسة، إذ قوبلت غالباً بالتجاهل أو بالاستماع الرسمي دون اتخاذ إجراءات تنفيذية.³

ثالثاً: الأثر على الهوية الوطنية العربية الناشئة

لم تكن الثورة العربية الكبرى مجرد تحوّل عسكري وجيوسياسي بل شكّلت أيضاً لحظة تأسيسية في تشكّل الوعي الوطني العربي الحديث، فقد أسهمت في بلورة سردية جمعية ذات

¹ لويل توماس، لورانس في بلاد العرب، مصدر سابق، ص 155.

² مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 149.

³ مايكل آشور، مصدر سابق، ص 115-117.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

طابع رمزي، تقدّم العرب بوصفهم جماعة قادرة على الفعل التاريخي المستقل، وقد أدرك لورانس هذا البعد الرمزي مبكرًا فعمل على توظيفه في سياق تعزيز التماسك المعنوي والسياسي داخل صفوف قوات الثورة بما يدعم استمراريته وقدرتها على الحركة في الميدان.¹

ورصد هنري لورنس في كتابه كيف أسهمت تجربة الثورة العربية في بلورة جيل من القادة والمثقفين العرب الذين استلهموا منها دروسًا سياسية ووطنية ظلّت حاضرة في وعيهم الجمعي خلال العقود اللاحقة، فقد شكّلت هذه التجربة لدى شخصيات مثل فيصل بن الحسين ونوري السعيد وغيرهما ممن عايشوا أحداث الثورة في طور الشباب، إطارًا مبكرًا لتشكّل تصوراتهم السياسية ونظرتهم إلى الدولة والسلطة.²

غير أن لورانس كان يرى في الوقت نفسه أن الهوية الوطنية العربية الناشئة تتسم بقدر من التشتت البنيوي يجعلها قابلة للاستثمار الخارجي، فهي هوية تتعدد داخلها اللهجات والمصالح وأنماط الولاء، ولا يجمعها في تلك المرحلة إلا عامل مشترك يتمثل في الرفض السياسي للوجودين العثماني والاستعماري، غير أن هذا القاسم المشترك، على الرغم من قوته الظرفية، لا يبدو كافيًا في نظره لتأسيس كيان دولتي حديث يقوم على أسس مؤسسية مستقرة.³ ويشير كتاب لورانس ملك العرب غير المتوج إلى أن لورانس تحوّل بعد انتهاء الحرب إلى شخصية إشكالية في المخيلة الجمعية العربية؛ إذ رآه البعض بطلًا أسهم في دعم الثورة العربية، في حين اعتبره آخرون أداة في مشروع سياسي بريطاني تبين لاحقًا طابعه الخادع، ويعكس هذا التباين في التقييم تعقيد المرحلة التاريخية ذاتها، كما يعكس تشابك الأدوار التي اضطلع بها لورانس في سياقها.⁴

رابعاً: الأثر الجغرافي للثورة على رسم حدود الهلال الخصيب

أدرك العرب أن مؤتمر السلام في باريس (1919) سيحسم إلى حد كبير مستقبلهم

¹ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 214-216.

² هنري لورنس، اللعبة الكبرى الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 275.

³ مايكل آشور، مصدر سابق، ص 148.

⁴ المصدر نفسه، ص 132.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

السياسي لعقود لاحقة، ولذلك بذل الأمير فيصل بن الحسين جهدًا دبلوماسيًا واسعًا لعرض القضية العربية أمام القوى الدولية، بمرافقة توماس لورانس الذي تولّى دور المترجم والمستشار والمدافع عن الوعود التي قُطعت للعرب خلال الحرب، غير أن هذه الجهود انتهت إلى نتائج محدودة سرعان ما تحولت في كتابات لورانس نفسه إلى تعبير عن خيبة أمل واضحة إزاء مآلات الترتيبات الدولية.¹

وصفوة القول فإن الثورة العربية الكبرى أسهمت تحركات الثورة العربية الكبرى بصورة غير مباشرة في إعادة تشكيل الجغرافيا السياسية للهلال الخصيب، كما تبلورت لاحقًا بعد مؤتمر سان ريمو عام 1920، فقد أصبحت المناطق التي كانت تحت سيطرة القوات العربية عند وقف إطلاق النار عناصر تفاوضية مؤثرة في عملية تقاسم النفوذ بين القوى المنتصرة، في حين اكتسب التقدم نحو دمشق دلالة رمزية عززت حضور فكرة العروبة في الوعي السياسي، قبل تثبيت حدود الانتدابات بشكل رسمي.²

كما شكّلت اتفاقية سايكس-بيكو إطارًا مرجعيًا لهذا التحول إذ يرى لورانس أن الخريطة التي أفرزتها مثّلت تقسيمًا لوحدة جغرافية وبشرية متداخلة إلى كيانات سياسية جديدة، خضعت أساسًا لمنطق المصالح الاستعمارية أكثر من الاعتبارات التاريخية والاجتماعية، وفي هذا الإطار حاول لورانس خلال مؤتمر باريس الدفاع عن الموقف العربي غير أن تأثيره بقي محدودًا داخل سياق تفاوضي هيمنت عليه موازين القوى الدولية.³

وتكشف هذه التحولات في مجملها أن خريطة الهلال الخصيب التي تشكّلت بعد الحرب العالمية الأولى حملت إرث الثورة العربية الكبرى بما انطوت عليه من تناقضات بين الطموحات الوطنية والنتائج السياسية الفعلية، وبين الوعود الدبلوماسية والحدود التي فرضتها ترتيبات ما بعد الحرب، ومن ثمّ تظل كتابات لورانس ومراسلاته مصدرًا مهمًا لفهم تلك المرحلة ليس فقط

¹ جورج أنطونيوس، يقظة العرب، مرجع سابق، ص 428.

² هنري لورنس، اللعبة الكبرى الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 211.

³ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 197.

الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى

بوصفها شهادات تاريخية بل أيضاً باعتبارها نصوصاً تعكس تشكّل الوعي السياسي في لحظة إعادة رسم الشرق العربي.¹

¹ هنري لورنس، ثورة في الصحراء، مصدر سابق، ص 176.

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد
الحرب في ضوء شهادة لورانس

يمثل هذا الفصل محاولةً لقراءة التحولات السياسية الكبرى التي شهدتها المشرق العربي عقب الحرب العالمية الأولى، من خلال تتبع مسار تفكك السلطة العثمانية وبروز المشاريع السياسية البديلة التي سعت إلى إعادة تشكيل المجال الجغرافي للهلال الخصيب، ويأتي ذلك في سياق تداخل معقد بين تطلعات الحركة العربية نحو الاستقلال، وبين الترتيبات الدولية التي فرضتها القوى المنتصرة، والتي أعادت رسم الخريطة السياسية للمنطقة وفق منطق المصالح الاستعمارية أكثر من استجابتها للمعطيات التاريخية والاجتماعية، وتوظف شهادة توماس إدوارد لورنس بوصفها مدخلاً تفسيريًا يساعد على فهم تناقضات المرحلة بين الخطاب السياسي المعلن والواقع الفعلي الذي أفرزته الحرب.

كما يتناول الفصل أبرز المحطات المفصلية التي شكّلت البنية السياسية الجديدة للمنطقة، بدءًا من دخول القوات العربية إلى دمشق سنة 1918 ومحاولة بناء إدارة عربية ناشئة، وصولاً إلى التحديات الداخلية والخارجية التي واجهت التجربة الفيصلية وانتهت بسقوطها سنة 1920، ويتوسع التحليل ليشمل أثر الاتفاقيات الدولية مثل سايكس-بيكو ومؤتمر سان ريمو، وما رافقها من تناقضات مع الوعود الموجهة للعرب، فضلاً عن بداية تشكل الكيانات القطرية تحت نظام الانتداب، وقد اعتمدت هذه التحولات، كما توضح الأدبيات التاريخية، على إعادة توزيع النفوذ بين بريطانيا وفرنسا بما أسّس لبنية سياسية جديدة ما زالت آثارها ممتدة في الجغرافيا السياسية للمنطقة إلى اليوم

المبحث الأول: تفكك السلطة العثمانية وصعود المشروع العربي

يهدف هذا المبحث إلى دراسة مرحلة تفكك السلطة العثمانية وبروز المشروع العربي في المشرق، مع جعل رؤية توماس إدوارد لورانس مدخلًا تفسيريًا لفهم هذه التحولات، فقد قدّم لورانس تصورًا لمستقبل المنطقة يقوم على دولة عربية ذات طابع اتحادي يوازن بين الوحدة العامة والاستقلال المحلي، وهو تصور ارتبط بسياق الثورة العربية وتداخل المصالح البريطانية في تلك المرحلة.

المطلب الأول: سقوط دمشق والتحولات السياسية في بلاد الشام

أولاً: اللحظة الدمشقية في رواية لورانس

شكّلت عملية دخول القوات العربية إلى دمشق في الأول من أكتوبر 1918 منعطفًا سياسيًا مهمًا في تاريخ المشرق العربي إذ ارتبطت بسقوط الحكم العثماني وبروز مشروع الإدارة العربية في بلاد الشام، وقد رافق هذا الحدث شعور بالتفاؤل لدى قطاعات واسعة من السكان الذين رأوا في وصول القوات العربية بداية مرحلة جديدة تقوم على الاستقلال السياسي وإعادة تنظيم الإدارة المحلية بعيدًا عن السيطرة العثمانية، غير أنّ هذا التفاؤل ظلّ محدودًا بفعل الغموض الذي أحاط بمواقف الحلفاء خاصة في ظل التفاهات الدولية السابقة المتعلقة بتقسيم المنطقة ونفوذ القوى الأوروبية فيها، وفي هذا يقول لورنس " وبين العرب كنت الصاحي المتشكك وكنت أحسدهم على ايمانهم الرخيص الثمن، وبالرغم من أنهم كانوا مخدوعين فقد كانوا يحاربون العدو بكل جوارحهم".¹

وتشير المعطيات التاريخية إلى أنّ سكان دمشق أظهروا ترحيبًا واضحًا بالقوات العربية وبالأمر فيصل حيث شهدت المدينة مظاهر احتفال واستقبال رسمي وشعبي عكست تنامي النزعة القومية العربية خلال السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، كما برزت خلال تلك الفترة محاولات لإضفاء طابع وطني على الإدارة الجديدة من خلال إشراك شخصيات محلية

¹ هنري لورانس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 388.

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس

في تسيير الشؤون الإدارية والسياسية، غير أنّ هذه المحاولات واجهت منذ البداية ضغوطاً خارجية مرتبطة بمصالح بريطانيا وفرنسا في المنطقة¹.

وفي الجانب الإداري واجهت الحكومة العربية الناشئة تحديات معقدة تمثلت في إدارة مدينة كبيرة خرجت حديثاً من ظروف الحرب والانحيار الإداري العثماني، فقد عانت المؤسسات من نقص الموارد والإمكانات، كما واجه المسؤولون صعوبات في حفظ الأمن وتنظيم الخدمات العامة وإعادة تشغيل الدوائر الرسمية، وزادت هذه المشكلات تعقيداً بسبب غياب رؤية واضحة لدى الحلفاء بشأن مستقبل سوريا السياسي الأمر الذي جعل الإدارة العربية تعمل في بيئة تتسم بعدم الاستقرار وتضارب المصالح الدولية.²

كما سعت الإدارة العربية إلى تأسيس جهاز حكومي قادر على تسيير الشؤون السياسية والإدارية بصورة منتظمة فظهرت محاولات لتنظيم الوزارات والإدارات المحلية وتحديد صلاحيات المسؤولين في دمشق والأقاليم التابعة لها، غير أنّ هذه الجهود بقيت محدودة التأثير نتيجة التدخل البريطاني والفرنسي المتزايد خاصة مع بدء الخلافات حول طبيعة السلطة المحلية وحدود استقلال القرار العربي وهو ما انعكس على فعالية المؤسسات الناشئة وعلى قدرتها في فرض سيادتها بصورة كاملة.³

وعلى الصعيد الثقافي والفكري شهدت دمشق حالة من النشاط الملحوظ بعد زوال الرقابة العثمانية، حيث عادت الصحف والمجلات والجمعيات الثقافية إلى ممارسة نشاطها، وبرزت نقاشات سياسية وفكرية حول مستقبل البلاد وهوية الدولة الجديدة، وقد مثّل هذا الحراك انعكاساً لحالة الانفتاح التي عرفتتها المدينة في تلك المرحلة القصيرة غير أنّ التطورات السياسية اللاحقة

¹ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مصدر سابق، ج 3، ص 45.

² نزيه مؤيد العظمة، رحلة في العربية السعيدة من مصر الى صنعاء، منشورات المدينة، ط 2، 1986، بيروت، ص 114-112.

³ يوسف الحكيم، سوريا والعهد الفيصلي، دار النهار، بيروت، 1986، ص 67-69.

وفرض الانتداب أدّى إلى تراجع كثير من مظاهر هذا النشاط وإخضاعه لقيود جديدة فرضتها السلطات الأجنبية.¹

وفي المقابل ساهمت بعض الكتابات الغربية أبرزها لويل توماس في كتابه " لورنس ملك العرب غير المتوج" في تشكيل صورة دعائية عن أحداث دمشق والثورة العربية إذ ركّزت على إبراز الدور البريطاني عبر هنري لورنس في العمليات العسكرية والسياسية المرتبطة بتحرير المدينة، وقد أدّى هذا التوجه إلى بروز روايات تقلّل من مساهمة القوى العربية المحلية في إدارة المعارك وفي تنظيم المرحلة الانتقالية، الأمر الذي أثار انتقادات عدد من الشخصيات العربية التي اعتبرت أنّ تلك التصورات عكست محاولة لتوظيف أحداث الثورة العربية ضمن السياق الدعائي والسياسي للحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى.²

ثانياً: فوضى الإدارة والتنافس على النفوذ في أعقاب السقوط

تكشف مرحلة ما بعد دخول القوات العربية إلى دمشق عن حالة من الفراغ السياسي والإداري التي رافقت انهيار السلطة العثمانية في بلاد الشام، ففي الوقت الذي سعت فيه الحكومة العربية الناشئة إلى تثبيت حضورها الإداري وتنظيم مؤسسات الحكم، كانت القوى البريطانية والفرنسية تعمل على توسيع نفوذها العسكري والسياسي داخل المنطقة الأمر الذي حدّد من قدرة الإدارة العربية على ممارسة سلطة مستقلة بصورة فعلية، وقد استمر هذا التنافس غير المباشر على النفوذ حتى انتهاء الحكم الفيصلي ودخول القوات الفرنسية إلى دمشق سنة 1920.³

كما اتسمت تلك المرحلة باضطراب في مراكز القرار وتداخل في مصادر السلطة نتيجة تعدد الجهات المؤثرة في إدارة الوضع السوري بعد الحرب العالمية الأولى، الأمر الذي أضعف قدرة الحكومة العربية على رسم سياسة مستقلة وواضحة المعالم، وقد عكست شهادات

¹ محمد كرد علي، المذكرات، مطبعة الترقّي، دمشق، 1948، ج 1، ص 134-136.

² لويل توماس، مرجع سابق، ص 185-187.

³ خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق 1918-1920، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، بيروت، 1971، ص 134.

المعاصرين هذا الوضع، إذ يروي توماس إدوارد لورانس أن عبد القادر أعلن الثورة على الحكم الجديد وحرّض أنصاره ضد رجال الإدارة باعتبارهم «صنائع بريطانية»، داعيًا إلى القضاء على حكمهم خدمة للدين والخلافة، ويكشف ذلك حجم الانقسامات الداخلية والتنافس على الشرعية السياسية داخل دمشق في تلك المرحلة¹.

كذلك برزت مشكلة نقص الكوادر المؤهلة لإدارة مؤسسات الدولة الجديدة إذ اعتمدت الحكومة العربية بدرجة كبيرة على شخصيات ذات خلفية عسكرية شاركت في الثورة العربية، في حين ظلّ الجهاز الإداري المدني محدود الخبرة والتنظيم، كما ظهرت داخل النخبة العربية تباينات سياسية وشخصية أثّرت في درجة الانسجام الداخلي، وهو ما انعكس سلبيًا على قدرة الحكومة على مواجهة الضغوط الخارجية والمحافظة على تماسكها المؤسسي خلال تلك المرحلة الحساسة².

أما على المستوى الداخلي السوري فقد تباينت مواقف فئات المجتمع تجاه الحكومة العربية الجديدة، ففي حين نظر إليها التيار الوطني والقومي بوصفها خطوة نحو الاستقلال السياسي والوحدة العربية، فضّلت بعض الفئات الاقتصادية والاجتماعية خاصة كبار التجار والوجهاء تبني موقف حذر وانتظاري في ظل غموض مستقبل المنطقة والتنافس الدولي حولها، وقد ساهم هذا التردد في الحد من تشكّل إجماع داخلي قوي يدعم الحكومة العربية بصورة كاملة³.

ويُظهر هذا الواقع أنّ إسقاط الحكم العثماني لم يكن كافيًا لتحقيق الاستقرار السياسي أو بناء دولة عربية مستقلة بصورة مباشرة إذ واجهت النخب العربية تحديات مرتبطة بإعادة تشكيل السلطة وبناء توافق سياسي داخلي في مجتمع خرج لتوه من قرون طويلة من الإدارة العثمانية، كما كشفت التطورات اللاحقة أن الصراع لم يكن مقتصرًا على مواجهة القوى الأجنبية

¹ هنري لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 441

² سليمان موسى، لورانس والعرب، وزارة الثقافة، ط 2، عمان، 1992، ص 196.

³ رمضان احمد العمر، محطات من تاريخ سورية في ظل الهيمنة الفرنسية 1920-1946-دراسة تحليلية تاريخية،

مجلة الضاد الدولية للعلوم الانسانية والاجتماعية، دار البيان العربي، ع 7، القاهرة، 2025، ص 173

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس

فحسب، بل شمل أيضًا صعوبة بناء مؤسسات سياسية وإدارية قادرة على توحيد مختلف القوى الاجتماعية والسياسية داخل بلاد الشام.¹

ثالثاً: التداعيات السياسية في بقية بلاد الشام وفلسطين

عاشت فلسطين التحولات السياسية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في ظل حالة من الإحباط المتزايد، بعدما اصطدمت تطلعات الفلسطينيين إلى الاستقلال العربي بفرض الانتداب البريطاني وتطبيق وعد بلفور، وقد كشفت الوثائق والمراسلات الوطنية الفلسطينية المبكرة عن تنامي الشعور بخيبة الأمل تجاه السياسة البريطانية خاصة مع اتساع الهوة بين الوعود التي رافقت الثورة العربية وبين الواقع السياسي الجديد الذي أخذ يتشكل تحت سلطة الانتداب، وأدّى ذلك إلى بروز وعي سياسي فلسطيني قائم على رفض المشروع الصهيوني والتخوف من مستقبل البلاد في ظل الدعم البريطاني للهجرة والاستيطان اليهودي.²

كما شهدت فلسطين خلال السنوات الأولى بعد الحرب تغيرات ديموغرافية واقتصادية متسارعة، ارتبطت بتزايد النشاط الاستيطاني وانتقال ملكية مساحات من الأراضي إلى المؤسسات والهيئات الصهيونية، وقد انعكست هذه التحولات على القرى والمدن الفلسطينية التي بدأت تلاحظ تغيراً تدريجياً في البنية السكانية والاقتصادية الأمر الذي أثار مخاوف واسعة داخل المجتمع الفلسطيني خاصة مع إدراك السكان للطابع المنظم للمشروع الاستيطاني والدعم الذي يحظى به من سلطات الانتداب.³

وفي المقابل أظهر لورنس إدراكاً مبكراً لما قد تُقضي إليه السياسة البريطانية في فلسطين من أزمات طويلة الأمد، فقد عبّر بعض مراسلاته: "أنا أكثر ندمًا على فلسطين مما أنا على

¹ هنري لورانس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 301.

² أكرم زعيتر، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918-1939، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1979، ص 47-45.

³ وليد خالدي، قبل الشتات: التاريخ الفلسطيني قبل عام 1948، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1986، ص 78

سوريا، لأن الظلم في فلسطين سيكون مُركَّبًا ومزمنًا¹، وهو ما كشف مبكرًا عن حجم التعقيدات السياسية والاجتماعية التي ستطبع القضية الفلسطينية خلال العقود اللاحقة.

المطلب الثاني: مشروع الدولة العربية بين الواقع والطموح

أولاً: رؤية لورانس للدولة العربية القادمة

هذا أفضل أكاديميًا وأكثر تماسكًا كفكرة ختامية، لأنه يُنهي الفكرة بخلاصة تحليلية مركزة دون إطالة أو تكرار، ويمكن صياغتها بصورة أكثر سلاسة كالآتي:

طرح توماس إدوارد لورانس في كتاب *أعمدة الحكمة السبعة* تصورًا سياسيًا للدولة العربية يقوم على إقامة حكومة عربية مستقرة تستند إلى أسس وطنية قادرة على توظيف حماسة الثورة لأهداف سلمية، مع المحافظة على الروح الإسلامية التي كان غالبية السكان يدينون لها بالولاء، وهو ما يعكس سعيه إلى التوفيق بين الطابع القومي للمشروع العربي والخصوصية الدينية والاجتماعية للمجتمع المشرقي.²

وفي السياق الفكري العربي كان الجدل قائمًا بين مشروع دولة عربية مركزية موحدة ومشروع كيانات عربية مستقلة ترتبط بروابط تعاون، وقد أسهمت ظروف ما بعد الحرب العالمية الأولى وتداخل المصالح الدولية في إضعاف فرص تحقق أي من هذه التصورات، خاصة مع تنامي النفوذ البريطاني والفرنسي في المشرق العربي.³

كما أظهرت التجربة السياسية ضعفًا في البنية القومية المنظمة، وهو ما انعكس على محدودية القدرة التفاوضية العربية خلال المؤتمرات الدولية، فالحماس الذي رافق الثورة العربية لم يتحول إلى مشروع مؤسسي متماسك قادر على مواجهة الضغوط الأوروبية في ظل استمرار

¹ مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، 163

² هنري لورانس، *أعمدة الحكمة السبعة*، مصدر سابق، ص 440

³ عبد العزيز الدوري، *الجزور التاريخية للقومية العربية*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، أكتوبر 2008، ص

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس

الانقسامات الاجتماعية والإقليمية، وهو ما استثمرته القوى الاستعمارية في إعادة تشكيل المنطقة وفق مصالحها¹.

وكان مؤتمر باريس للسلام (1919) محطة حاسمة في هذا السياق، إذ شارك الأمير فيصل في المفاوضات الخاصة بمستقبل المشرق العربي، وكان توماس إدوارد لورانس حاضراً بصفته مترجماً ومستشاراً يرافق الوفد العربي ويتنقل بين الدبلوماسية البريطانية والطرح العربي، وقد عكست هذه المفاوضات تعقيد الموقف العربي، كما انتهت بنتائج بعيدة عن التطلعات العربية بسبب سياسات القوى الأوروبية وتمسكها باتفاقيات النفوذ ومشاريع الانتداب². وتشير الشهادات والوثائق المرتبطة بتلك المرحلة إلى أنّ التفاهات السرية بين بريطانيا وفرنسا كانت تسير في اتجاه مخالف لما كان يُناقش علناً في المؤتمر، ما أدى إلى فجوة واضحة بين الخطاب السياسي المعلن والقرارات الفعلية المتعلقة بمستقبل المنطقة³.

ثانياً: محاولات البناء المؤسسي في ظل الضغوط الخارجية

شهدت الحكومة العربية في دمشق بين سنتي 1918 و 1920 محاولات لتنظيم مؤسسات الدولة الحديثة، شملت إنشاء الوزارات، وضبط الميزانية، وإصدار العملة، وتنظيم القضاء، وإصلاح التعليم، وذلك رغم محدودية الإمكانيات والظروف السياسية غير المستقرة التي رافقت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى⁴، وقد مثّلت هذه التجربة أول محاولة فعلية لإقامة حكم عربي في بلاد الشام عقب انتهاء السيطرة العثمانية⁵.

¹ قسطنطين زريق، الوعي القومي نظرات في الحياة القومية المنفتحة في المشرق العربي، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1939، ص 89.

² جورج أنطونيوس، يقظة العرب، مرجع سابق، ص 385.

³ مايكل آشور، مرجع سابق، ص 167.

⁴ محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة تاريخ ومذكرات، المكتبة العصرية، صيدا، 1950، ج 3، ص 56.

⁵ خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 156-158.

كما عرفت دمشق خلال هذه المرحلة نشاطاً سياسياً وفكرياً ملحوظاً، تجلّى في تعدد الصحف والجمعيات السياسية واتساع النقاشات العامة، وهو ما عكس حالة الانفتاح السياسي التي صاحبت قيام الحكومة العربية قبل سقوطها بعد التدخل الفرنسي سنة 1920¹.

وتُظهر كتابات توماس إدوارد لورانس إدراكه للصعوبات التي واجهت مشروع بناء الدولة العربية، إذ أشار إلى أن الثوار لم يكونوا يمتلكون الخبرة الكافية في الإدارة والحكم، الأمر الذي دفع الأمير فيصل إلى الاستعانة بعناصر ذات كفاءة إدارية اكتسبت خبرتها خلال العهد العثماني، إلى جانب الإسراع في تشكيل مؤسسات الحكم وهيئات الإدارة، ويعكس ذلك وعي لورانس بالتحديات السياسية والتنظيمية التي واجهت الحكومة العربية، خاصة في ظل التوازنات الدولية والاتفاقات السياسية التي حدّت من فرص استقرارها واستمرارها.²

ثالثاً: سقوط التجربة الفيصلية ومعنى الخسارة

بلغت الأزمة ذروتها مع الإنذار الفرنسي الموجه إلى فيصل في يوليو 1920، والذي أعقبته معركة ميسلون التي انتهت بتفريق الجيش العربي ودخول قوات الجنرال غورو إلى دمشق، وقد شكّل هذا الحدث نهاية فعلية للحكومة العربية في بلاد الشام، بعد أقل من عامين على قيامها.³

وتكشف الشهادات المعاصرة لتلك المرحلة حالة الارتباك التي سادت داخل مؤسسات الحكم قبيل سقوط دمشق، خاصة مع إدراك القيادات السياسية والعسكرية عدم تكافؤ موازين القوى أمام التقدّم الفرنسي، كما عكست هذه المرحلة الجدل القائم حول جدوى المقاومة المسلحة في ظل غياب الدعم الخارجي الكافي.⁴

¹ محمد كرد علي، المذكرات، مرجع سابق، ج 1، ص 156.

² هنري لورانس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 440.

³ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مرجع سابق، ج 3، ص 78-80.

⁴ نزيه مؤيد العظمة، مذكرات، مرجع سابق، ص 134.

وتُظهر رسائل توماس إدوارد لورنس أن سقوط الحكومة الفيصلية أثار لديه شعورًا بالغضب والإحباط، خاصة أنه كان قد حذّر من خطورة دفع فيصل إلى مواجهة مباشرة مع فرنسا دون وجود ضمانات بريطانية واضحة تضمن استمرار المشروع العربي في دمشق¹. وقد ارتبط سقوط الدولة العربية في دمشق بالسياق الدولي الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، وبالتفاهات الاستعمارية التي أعادت توزيع مناطق النفوذ في المشرق العربي، وهو ما جعل التجربة العربية تصطدم بواقع سياسي وعسكري تجاوز قدراتها الذاتية وإمكانات استمرارها².

¹ هنري لورانس، أعمدة الحكمة السبعة، مصدر سابق، ص 341-343.

² سليمان موسى، لورانس والعرب، مرجع سابق، ص 213-215.

المبحث الثاني: التقسيمات الاستعمارية وانعكاسها على وحدة الهلال الخصيب

يهدف هذا المبحث إلى دراسة أثر التقسيمات الاستعمارية على وحدة الهلال الخصيب بعد الحرب العالمية الأولى، مع اعتماد رؤية توماس إدوارد لورانس كمدخل تفسيري أساسي، فقد عايش لورانس تلك التحولات وقدم قراءة نقدية للتقسيمات التي أفرزتها القوى الاستعمارية، معتبراً أنها تجاهلت الواقع التاريخي والاجتماعي للمنطقة وأسهمت في تفكيك وحدتها السياسية، كما تكشف كتاباته عن إدراك مبكر للتناقض بين الوعود الموجهة للعرب والنتائج الفعلية لترتيبات ما بعد الحرب، وهو ما يجعل من رؤيته إطاراً لفهم طبيعة التشكل السياسي الجديد في المشرق العربي.

المطلب الأول: اتفاقية سايكس-بيكو وآثارها على الخريطة السياسية أولاً: نشأة الاتفاقية وخلفياتها السياسية

إن ما يعرف باتفاقية سايكس بيكو هي سلسلة تفاهمات واتفاقيات سرية بين فرنسا والمملكة المتحدة بمباركة من الإمبراطورية الروسية تهدف إلى اقتسام الإمبراطورية العثمانية وقد تم التوصل إلى هذه الاتفاقية بين أكتوبر من عام 1915م إلى ماي من عام 1916م من خلال مفاوضات سرية بين الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا بيكو (1870-1951م) والبريطاني مارك سايكس (1879 - 1919م)، ووزير الخارجية الروسي سيرغي سازونوف وتوجت بتبادل وثائق بين وزارات الخارجية وكانت التسمية آنذاك هي اتفاقية آسيا الصغرى ولكن الاسم الذي أصبح الأكثر شيوعاً هو سايكس بيكو.¹

أما بالنسبة لأهداف السياسة البريطانية فقد كانت تتلخص في ضرورة أحكام قبضتها على العراق وذلك لأهميته بالنسبة لحكومة الهند هذا بالإضافة إلى إشرافه على منطقة الخليج العربي وثالثاً لوجود الثروة النفطية في منطقة الموصل، والهدف الثاني لسياستها هو التمكين للوجود اليهودي في فلسطين وذلك للفصل بين مصر والمشرق العربي، وضمان أمن قناة

¹ لخضر سعيداني: المشرق العربي والمخططات الاستعمارية: من سايكس بيكو إلى سان ريمو، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة تيارت، مج 1، ع 1، 2018، ص 270

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس

السويس، الهدف الثالث والأخير هو ربط منطقة شرق الأردن بالسياسة البريطانية، وكل هذا يؤدي في النهاية إلى تحقيق مصالحها في هذه المنطقة الحيوية من العالم.¹

كما أظهرت اتفاقية سايكس-بيكو تناقضًا واضحًا مع الوعود التي قدمتها بريطانيا للشريف حسين خلال مراسلات الحسين-مكماهون بين سنتي 1915 و1916، الأمر الذي أدى لاحقًا إلى أزمة ثقة بين العرب والحكومة البريطانية، خاصة بعد الكشف عن الاتفاقية السرية خلال سنوات الحرب.²

وتكشف دراسة المراسلات المتبادلة بين الشريف حسين ومكماهون³ أن الصياغات البريطانية المتعلقة بمستقبل الأقاليم العربية اتسمت بالغموض وترك المجال مفتوحًا لتفسيرات متعددة، وهو ما استُخدم لاحقًا لتبرير المواقف البريطانية المتعارضة مع الوعود السابقة بشأن استقلال البلاد العربية.⁴

وتُظهر رسائل توماس إدوارد لورنس أنه كان على اطلاع ببعض تفاصيل التفاهات البريطانية-الفرنسية خلال مراحل الثورة العربية، واستمر رغم ذلك في أداء دوره ضمن السياسة البريطانية في المنطقة، وهو ما جعل صورته التاريخية مرتبطة بالتناقض بين دعمه المعلن للمشروع العربي وارتباطه العملي بالسياسات الاستعمارية البريطانية.⁵

ثانيًا: الاتفاقية وإعادة رسم الجغرافيا السياسية

¹ منصور عبد السميع منصور، السياسة البريطانية في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، مج 17، ع 64، 2006، ص ص 111-112.

² جورج أنطونيوس، يقظة العرب، مرجع سابق، ص ص 401-403.

³ مكماهون (1862-1948) المندوب السامي البريطاني في مصر، وصاحب المراسلات الشهيرة مع الشريف حسين، درس في كلية هيلبري وكلية ساند هرسث العسكرية وتخرج ضابطًا في الجيش، وتقل في المناصب الإدارية حتى أصبح سكرتير الشؤون الخارجية لحكومة الهند البريطانية، وحضر مؤتمر الصلح 1916م، مندوبًا في اللجنة الدولية لشرق الأوسط (ينظر، فتحي صفوة نجدي، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مج 2، بيروت لبنان 1996، ص 93).

⁴ طارق عبد الفتاح الجعبري، وآخرون، قراءة في الرسائل الجانبية لمراسلات حسين-مكماهون، مجلة دراسات بيت المقدس، مج 18، ع 1، ص ص 75-76.

⁵ سليمان موسى، لورانس والعرب، مرجع سابق، ص 231.

قسّمت اتفاقية سايكس-بيكو المشرق العربي إلى مناطق نفوذ خاضعة لبريطانيا وفرنسا، حيث خضعت سواحل بلاد الشام ولبنان للنفوذ الفرنسي، في حين خضع العراق الجنوبي وبعض الموانئ الإستراتيجية في شرق المتوسط للنفوذ البريطاني، مع إخضاع فلسطين لنظام دولي خاص بالنظر إلى مكانتها الدينية والسياسية، وقد أدّى هذا التقسيم إلى إعادة تشكيل المجال الجغرافي للهلال الخصيب وفق المصالح الاستعمارية للقوى الأوروبية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى.¹

كما أظهرت الحدود الجديدة تعارضاً واضحاً مع البنية الاجتماعية والاقتصادية التقليدية للمنطقة، إذ إن الروابط القبلية والعائلية والتجارية التي تشكّلت عبر قرون امتدت في كثير من الأحيان عبر الحدود المستحدثة، الأمر الذي جعل التقسيمات السياسية الجديدة تفصل بين جماعات مترابطة ضمن فضاء جغرافي واحد.²

وكان الكرد من أكثر الجماعات تأثراً بإعادة رسم حدود المشرق بعد الحرب العالمية الأولى، حيث توزّع وجودهم بين تركيا والعراق وسوريا وإيران، في ظل تراجع مشاريع تقرير المصير التي طُرحت عقب الحرب، وهو ما أسهم في بروز القضية الكردية ضمن المشكلات القومية التي رافقت تشكّل دول المنطقة الحديثة.³

ثالثاً: الاتفاقية ووعده بلفور: الطبقة الثانية من التناقضات

كشفت السياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى عن مجموعة من التناقضات المرتبطة بالوعد والاتفاقيات المتعارضة، إذ تعارضت مراسلات الحسين-مكماهون مع اتفاقية سايكس-بيكو، قبل أن يضيف وعد بلفور سنة 1917 بعداً جديداً للقضية الفلسطينية من خلال دعم إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، رغم كون سكانها من العرب

¹ هنري لورنس، الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 319-321.

² فيليب حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تر: جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958، ج 2، ص 612-614.

³ كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، تر: محمد عبد الكريم، ط 2، دار الفارابي - بيروت، 1984، ص 178.

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس

يشكلون الأغلبية السكانية آنذاك، وقد أسهمت هذه التوجهات المتزامنة في تعقيد الأوضاع السياسية في المنطقة خلال مرحلة ما بعد الحرب.¹

كما أظهرت التحركات السياسية الفلسطينية المبكرة إدراك النخب الوطنية للمخاطر المرتبطة بالمشاريع الدولية الخاصة بفلسطين، حيث جرى تقديم مذكرات وعرائض إلى مؤتمر باريس للسلام سنة 1919 للمطالبة بالاستقلال ورفض المشاريع التي تمسّ بحقوق السكان العرب في فلسطين، غير أن تأثير هذه المطالب ظل محدودًا مقارنة بالدعم السياسي والدبلوماسي الذي حظيت به الحركة الصهيونية لدى القوى الكبرى.²

وتُظهر مراسلات توماس إدوارد لورنس وجود تباين بين مواقفه الشخصية تجاه بعض السياسات البريطانية في المنطقة وبين التزامه بدوره الرسمي ضمن الإدارة البريطانية، خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وترتيبات ما بعد الحرب، وهو ما يعكس طبيعة التعقيدات السياسية التي أحاطت بدوره خلال تلك المرحلة.³

المطلب الثاني: الانتداب الأوروبي وبداية تشكل الكيانات القطرية أولاً: مؤتمر سان ريمو وتوزيع الانتدابات

أقرّ مؤتمر سان ريمو في أبريل 1920 نظام الانتداب على الأقاليم العربية الخارجة من الحكم العثماني، فخضعت سوريا ولبنان للانتداب الفرنسي، بينما خضعت فلسطين والعراق وشرق الأردن للانتداب البريطاني، وذلك في إطار الترتيبات الدولية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى تحت إشراف عصبة الأمم، وقد مثّلت هذه القرارات تطبيقًا عمليًا للتقاهمات السابقة بين القوى الأوروبية بشأن توزيع مناطق النفوذ في المشرق العربي.⁴

وأثارت قرارات سان ريمو ردود فعل واسعة في مختلف الأقطار العربية، حيث شهدت مدن عديدة موجات من الاحتجاجات والرفض الشعبي للانتداب الأجنبي، خاصة في العراق

¹ جورج أنطونيوس، يقظة العرب، مرجع سابق، ص 418.

² أكرم زعيتر، مرجع سابق، ص 67.

³ مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 177-179.

⁴ هنري لورنس، الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 335.

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس

وسوريا، باعتبار أن هذه القرارات تجاهلت مطالب الاستقلال التي رفعتها الحركات الوطنية العربية خلال الحرب وبعدها.¹

وفي العراق اندلعت ثورة العشرين سنة 1920 بوصفها إحدى أبرز حركات المقاومة ضد الانتداب البريطاني، وشاركت فيها قوى اجتماعية ودينية وقبلية متعددة من مختلف مناطق البلاد، ما منحها طابعاً وطنياً واسعاً رغم عدم قدرتها على تحقيق انتصار عسكري أمام التفوق البريطاني.²

وتُظهر رسائل توماس إدوارد لورنس قلقه من نتائج السياسة البريطانية في العراق وسوريا بعد الحرب العالمية الأولى، خاصة في ظل اعتماد ترتيبات سياسية قائمة على المصالح الاستعمارية المباشرة، وهو ما اعتبره عاملاً قد يؤدي إلى استمرار الاضطرابات والصراعات في المنطقة خلال المراحل اللاحقة.³

ثانياً: الانتداب الفرنسي وبناء لبنان الكبير وسوريا

جاء الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان في سياق التنافس الاستعماري الأوروبي على المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى، وقد سعت فرنسا إلى تثبيت نفوذها السياسي والثقافي في المنطقة من خلال إنشاء كيانات إدارية جديدة تتوافق مع مصالحها الإستراتيجية، وفي هذا الإطار أعلن قيام دولة لبنان الكبير سنة 1920 بعد ضم مناطق ساحلية وداخلية إلى متصرفية جبل لبنان السابقة، وهو ما أدى إلى تشكّل واقع ديموغرافي وسياسي أكثر تعقيداً نتيجة التنوع الطائفي والسكاني داخل الكيان الجديد.⁴

كما أظهرت الدراسات السكانية المبكرة المتعلقة بولاية بيروت والمناطق المجاورة حجم التداخل الديموغرافي بين الجماعات الدينية والإثنية في بلاد الشام، الأمر الذي جعل عملية

¹ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مرجع سابق، ج 3، ص 112.

² حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، تر: عفيف

الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 1، بيروت، 1990، ص 312.

³ مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 195.

⁴ هنري لورنس، الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 348-350.

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس

ترسيم الحدود الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى ترتبط بإشكالات سياسية واجتماعية مستمرة، خاصة في المناطق المختلطة سكانياً.¹

واعتمدت السلطات الفرنسية بعد سنة 1920 سياسة التقسيم الإداري داخل سوريا، من خلال إنشاء كيانات منفصلة مثل دولة العلويين ودولة جبل الدروز وسوريا المركزية وسنجق إسكندرون، وهو ما ارتبط بمحاولة الحد من تنامي النزعة القومية السورية الجامعة عبر تعزيز الهويات المحلية والطائفية ضمن إطار الإدارة الانتدابية.²

كما ارتبط الوجود الفرنسي في المشرق بمشروع ثقافي وإداري سعى إلى توسيع النفوذ الفرنسي عبر مؤسسات التعليم والإدارة والصحافة، بهدف تكوين نخب محلية مرتبطة بالنموذج الثقافي والسياسي الفرنسي، وقد ظهر تأثير هذه السياسة بصورة أوضح في لبنان مقارنة بسوريا نتيجة الخصوصيات السياسية والطائفية التي ميّزت المجتمع اللبناني خلال فترة الانتداب.³

ثالثاً: الانتداب البريطاني وتشكيل العراق وشرق الأردن وفلسطين

اعتمدت بريطانيا في العراق بعد الحرب العالمية الأولى سياسة تقوم على الانتقال من الاحتلال العسكري المباشر إلى نظام الانتداب تحت إشراف عصبة الأمم، مع الحفاظ على النفوذ السياسي والعسكري والاقتصادي البريطاني عبر مؤسسات محلية مرتبطة بالإدارة البريطانية، وقد سمح هذا النظام لبريطانيا بتقليل الأعباء الإدارية المباشرة مع استمرار التحكم في الملفات الإستراتيجية الأساسية.⁴

وفي هذا السياق جرى تنصيب فيصل بن الحسين ملكاً على العراق سنة 1921 عقب مؤتمر القاهرة، في إطار تسوية سياسية هدفت إلى منح الحكم طابعاً عربياً يحظى بقبول نسبي لدى التيارات القومية، مع استمرار وجود المستشارين البريطانيين في مؤسسات الدولة والإدارة

¹ رفيق التميمي ومحمد بهجت، ولاية بيروت، دار لحد خاطر، 1916، بيروت، ج 2، ص 134.

² رمضان احمد العمر، مرجع سابق، ص 174

³ علي محافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1975، ص 289.

⁴ نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب، منشورات المكتبة العصرية، ط 1، بيروت، 1969، ص 223.

الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس

العسكرية والمالية، وقد ساعد هذا الترتيب على تثبيت النظام السياسي العراقي خلال السنوات الأولى من الانتداب.¹

وتُظهر رسائل توماس إدوارد لورنس أن مشروع إقامة المملكة العراقية الهاشمية كان بالنسبة إليه حلاً سياسياً لتعويض الهاشميين عن خسارة سوريا بعد سقوط الحكومة الفيصلية سنة 1920، مع إدراكه لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية بين العراق وبلاد الشام.² أما إمارة شرق الأردن فقد تأسست سنة 1921 تحت رئاسة الأمير عبد الله بن الحسين ضمن الترتيبات البريطانية الجديدة في المنطقة، وشكّلت كياناً سياسياً مرتبطاً بالمصالح الإستراتيجية البريطانية في حماية طرق المواصلات وتأمين الاستقرار على حدود فلسطين والعراق، رغم محدودية موارده الاقتصادية وضعف بنيته الإدارية في بداياته.³

وفي منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية حافظت بريطانيا على نفوذها من خلال اتفاقيات الحماية مع الإمارات الساحلية، بالتوازي مع إقامة علاقات سياسية مع الملك عبد العزيز آل سعود خلال مرحلة توسع نفوذه في نجد والحجاز، وذلك ضمن سياسة بريطانية هدفت إلى ضمان الاستقرار وحماية المصالح الإستراتيجية البريطانية في المنطقة.⁴

رابعاً: الأثر الطويل الأمد للتقسيم على هوية الهلال الخصيب

أدى التقسيم الاستعماري للمشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى إلى تفكيك المجال الجغرافي والاقتصادي الذي كان قائماً في إطار الدولة العثمانية، وتحويله إلى كيانات سياسية منفصلة ارتبطت اقتصادياً بالقوى الاستعمارية أكثر من ارتباطها ببعضها البعض، وقد انعكس ذلك على طبيعة العلاقات التجارية والاقتصادية في المنطقة خلال مرحلة الانتداب وما بعدها.⁵

¹ حنا بطاطو، العراق، مرجع سابق، ج 1، ص 334-336.

² مختارات من رسائل لورانس، مصدر سابق، ص 208.

³ علي محافظة، تاريخ الأردن المعاصر، عهد الإمارة 1921 _ 1946 م، الجامعة الأردنية، ط1، عمان، 1973م، ص 20-21.

⁴ عبد الفتاح أبو علي، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1979، ص 212.

⁵ سمير أمين، الأمة العربية، تر: محمد نوفل، ج 1، مكتبة مدبولي، ط 1، القاهرة، 1988، ص 145-147.

كما ساهمت الحدود الجديدة في ظهور هويات سياسية قُطرية داخل الدول الناشئة، مثل سوريا والعراق ولبنان وشرق الأردن، بالتوازي مع استمرار حضور فكرة الوحدة العربية، وقد أدى ذلك إلى بروز جدل سياسي وفكري حول العلاقة بين الانتماء القومي العربي والانتماءات الوطنية المحلية التي تشكلت في ظل الدولة الحديثة وحدودها الجديدة.¹

وأظهرت تطورات النصف الأول من القرن العشرين أثر هذا التفكك السياسي في قدرة الدول العربية على مواجهة التحديات الإقليمية، خاصة مع تصاعد القضية الفلسطينية بعد سنة 1948، حيث برزت إشكالية التنسيق بين الدول العربية ضمن واقع سياسي تشكّل أساساً في ظل ترتيبات ما بعد الحرب العالمية الأولى.²

وقد تشكّلت حدود المشرق العربي الحديثة بصورة تدريجية عبر سلسلة من الاتفاقيات والقرارات الدولية التي اتخذتها القوى الكبرى خلال مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهو ما جعل كثيراً من هذه الترتيبات المؤقتة يتحول لاحقاً إلى واقع سياسي دائم استمر تأثيره في المنطقة طوال القرن العشرين.³

¹ زكريا الغول، اتفاقية سايكس بيكو ظروف وتداعيات، مجلة أوراق ثقافية (منشور 2023/10/26) على : <https://www.awraqthaqafya.com/2706> (تاريخ الاطلاع: 2026/05/01، 14:00)

² قسطنطين زريق، معنى النكبة، دار العلم للملايين، بيروت 1948، ص 23-25.

³ هنري لورنس، الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، مصدر سابق، ص 363.

وصفوة القول فإن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى مثلت لحظة تحول جذري في تاريخ المشرق العربي، حيث أدى تفكك السلطة العثمانية إلى فراغ سياسي حاولت النخب العربية ملأه عبر مشروع دولة عربية في بلاد الشام، خاصة في دمشق، إلا أن هذه التجربة اصطدمت منذ بدايتها بتدخلات دولية حادة وصراعات نفوذ بين بريطانيا وفرنسا، إلى جانب ضعف البنية الإدارية الداخلية وتعدد مراكز القرار.

وتُظهر تجربة الحكم الفيصلية أن بناء دولة عربية حديثة في تلك المرحلة كان محدودًا بعوامل داخلية مرتبطة بنقص الخبرة الإدارية وتباين القوى الاجتماعية، وعوامل خارجية أهمها الاتفاقيات الاستعمارية التي أعادت رسم الخريطة السياسية للمنطقة، مثل سايكس-بيكو ومقررات سان ريمو، والتي مهدت لقيام نظام الانتداب بدل الاستقلال الفعلي.

وفي السياق نفسه تكشف شهادة توماس إدوارد لورنس عن وعي مبكر بتناقضات السياسة البريطانية بين دعم الحركة العربية من جهة، والالتزامات الاستعمارية مع فرنسا من جهة أخرى، وهو ما ساهم في تعميق الفجوة بين الوعود السياسية والنتائج الفعلية على أرض الواقع.

كما انتهى الفصل إلى أن تقسيم المشرق العربي إلى كيانات قطرية تحت الانتداب البريطاني والفرنسي لم يكن مجرد إعادة تنظيم إداري، بل كان إعادة تشكيل شاملة للبنية السياسية والجغرافية والاجتماعية للهلال الخصيب، ترتب عنها آثار طويلة المدى تمثلت في ترسيخ الحدود الحديثة وظهور الدولة القطرية بدل المشروع الوحدوي العربي.

خاتمة

خاتمة

تُعدّ مذكرات توماس إدوارد لورانس من أبرز الوثائق الغربية التي رصدت أحداث الحرب العالمية الأولى في منطقة الهلال الخصيب، لما حملته من شهادة حية على التحولات السياسية والعسكرية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة خلال تلك المرحلة المفصلية من تاريخها، فقد مثّل لورانس نموذجاً فريداً للضابط المستكشف الذي جمع بين العمل الاستخباراتي والتدخل الميداني، وبين الانخراط في التفاصيل المحلية والولاء للإمبراطورية البريطانية، مما جعل كتاباته مزيجاً دقيقاً بين التقرير العسكري والانطباع الشخصي، وبين الرواية الذاتية والوثيقة التاريخية.

وقد برزت أهمية هذه الدراسة من خلال قدرتها على تتبع صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس، وتحليل رؤيته للبنية السياسية والاجتماعية والقبلية في بلاد الشام والعراق، وكشف التناقض بين وعوده للعرب والترتيبات الاستعمارية التي أفرزتها اتفاقية سايكس-بيكو ونظام الانتداب، كما شكّلت الثورة العربية الكبرى محوراً رئيسياً في كتاباته، حيث أظهر من خلالها كيف استثمرت بريطانيا الحركات الوطنية العربية لخدمة مصالحها الاستراتيجية في تفكيك الدولة العثمانية، قبل أن تعيد رسم خريطة المنطقة وفق منطق النفوذ والمصالح لا وفق الوعود التي قطعتها للعرب.

وسعت هذه الدراسة إلى تتبع ظروف ظهور لورانس في الهلال الخصيب ودوره في الثورة العربية الكبرى، مع التركيز على صورته للمنطقة في مذكراته ورسائله، وإبراز أثر التقسيمات الاستعمارية على وحدة الهلال الخصيب كما شهدتها ووصفها.

ومن خلال هذه الدراسة، أمكن التوصل إلى مجموعة من الاستنتاجات الأساسية، يمكن إجمالها فيما يلي:

- مصطلح "الهلال الخصيب" ليس عربياً، بل صاغه عالم آثار أمريكي سنة 1916، لكنه يعبر عن وحدة جغرافية وحضارية حقيقية تمتد من الخليج العربي إلى البحر المتوسط.
- منطقة الهلال الخصيب كانت محط صراع القوى الكبرى قبل الحرب العالمية الأولى بسبب موقعها الاستراتيجي وثرواتها، في وقت كانت فيه الدولة العثمانية ضعيفة ومترهلة.

خاتمة

- ظهور لورانس في المنطقة لم يكن صدفة، بل كان نتيجة خطة بريطانية محكمة، استفادت من تكوينه العلمي وخبراته الميدانية التي اكتسبها تحت غطاء الدراسات الأثرية.
 - لورانس أدرك مبكراً أن العلاقة بين القبائل والدولة العثمانية تقوم على التوازن بين التهريب والترغيب، وأن الولاء القبلي لا يُشترى بالمال بل يُكتسب بالكرامة والوفاء بالوعد.
 - استراتيجيته العسكرية القائمة على حرب العصابات كانت مناسبة لطبيعة القوات العربية وحقت نجاحات كبرى، أبرزها الاستيلاء على العقبة وتدمير سكة حديد الحجاز.
 - علاقة لورانس بالأمير فيصل كانت معقدة ومزدوجة، فهو من جهة كان معجباً به ومؤمناً بقضيته، ومن جهة أخرى ظل ضابطاً بريطانياً يخدم مصالح بلاده.
 - لورانس كان يدرك التناقض بين وعده للعرب والاتفاقيات السرية مثل سايكس-بيكو ووعد بلفور، مما سبب له أزمة نفسية وأخلاقية عميقة.
 - الثورة العربية ساهمت في تغيير موازين القوى داخل المنطقة، لكن الترتيبات الاستعمارية اللاحقة قضت على معظم مكاسبها وحطمت آمال العرب في الاستقلال.
 - التقسيمات الاستعمارية أدت إلى تفكك وحدة الهلال الخصيب، وإلى رسم حدود جديدة فصلت بين جماعات مترابطة تاريخياً، وهو ما أُنذر به لورانس واعتبره خطأ فادحاً.
- وفي ضوء هذه النتائج يمكن القول أن مذكرات "أعمدة الحكمة السبعة" من المصادر التاريخية الأولية المهمة لدراسة أوضاع الهلال الخصيب خلال العقود الأولى من القرن العشرين، لكونها صادرة عن شاهد ومشارك مباشر في عدد من الأحداث التي عرفت المنطقة، غير أن الإفادة منها تقتضي إخضاعها للنقد التاريخي لأنها تعكس رؤية صاحبها وانطباعاته الشخصية إلى جانب الوقائع التاريخية، كما أنها دُوّنت بعد انتهاء الأحداث بمدة زمنية الأمر الذي قد يؤثر في دقة بعض التفاصيل واستحضارها، لذلك لا ينبغي الاعتماد عليها منفردة في تفسير الأحداث بل يتعين مقارنتها بمذكرات المعاصرين والوثائق الرسمية والمصادر التاريخية الأخرى بهدف التحقق من معطياتها واستكمال الصورة التاريخية للهلال الخصيب خلال الفترة المدروسة.

الملاحق

الملحق رقم 01: صورة لورنس ضمن اخوته الأربعة.



توماس ادوارد لورنس، أسرار لورنس، المصدر السابق، ص 220.



لويل توماس، المصدر السابق، ص 322.

الملحق رقم 03: صورة شريف حسين بن علي.



نويل توماس، المصدر السابق، ص 319.



مايكل آش، المصدر السابق، ص 224.



لويل توماس، المصدر السابق، ص 318.



مؤتمر فرساي
وفد الامير فيصل ويضم نوري السعيد ولورانس والكابتن بيسانبي
في الوسط

لويل توماس، المصدر السابق، ص 359.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

أكرم زعيتر، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918-1939، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1979.

توماس إدوارد لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، 1963.

توماس إدوارد لورنس، أسرار لورنس العرب: رسائل لورنس السرية، تر: سامي الحجازي، تد: فؤاد فراح، دار الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2009.

توماس إدوارد لورنس، ثورة في الصحراء: مذكرات حول الثورة العربية الكبرى، تر: أحمد اييش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات، 2013.

جورج أنطونيوس، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، تر: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، ط8، بيروت، 1978.

جيمس هنري برستد، انتصار الحضارة (تاريخ الشرق الأدنى القديم)، تر: أحمد فخري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011.

خالد السبول، الهاشميون من حكم الإمارة العثمانية إلى تأسيس الممالك الهاشمية، دار الأهلية، د.ب، 1997.

رفيق التميمي ومحمد بهجت، ولاية بيروت، دار لحد خاطر، بيروت، 1916.

سليمان موسى، لورنس العرب: وجهة نظر عربية، د.د.ن، عمان، 1963.

سليمان موسى، الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية (1908-1924)، دار النهار للنشر، الأردن، 2002.

سليمان موسى، الثورة العربية الكبرى: الحرب في الحجاز 1916-1918، د.د.ن، عمان، 1989.

- سليمان موسى، لورنس والعرب: وجهة نظر عربية، وزارة الثقافة الأردنية، الأردن، 2017.
- سليمان موسى، لورانس والعرب، وزارة الثقافة، ط2، عمان، 1992.
- شاكر خليل نصار، لورنس والعرب، المطبعة الأميركية، ط1، بيروت، 1930.
- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة سياسية، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، د.ت.
- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، مج3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.
- علي الجوهري، لورنس العرب: الرجل الذي خان العرب، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2001.
- علي محافظة، تاريخ الأردن المعاصر: عهد الإمارة 1921-1946م، الجامعة الأردنية، ط1، عمان، 1973.
- علي محافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1975.
- علي المحافظة، أبحاث في تاريخ العرب المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998.
- فاضل حسين، الفكر السياسي في العراق المعاصر 1914-1958، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، 1984.
- فيليب حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تر: جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958.
- فيليب نايتلي وكولون سمبسون، المخفي من حياة لورنس، تر: إيلي الوند وإبراهيم العابد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1971.
- قسطنطين زريق، الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المنفتحة في الشرق العربي، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1939.

قائمة المصادر والمراجع

- قسطنطين زريق، معنى النكبة، دار العلم للملايين، بيروت، 1948.
- كليب سعود الفوز، مراسلات الشريف الحسين والسلطان العثمانيين 1908-1918م، المكتبة الوطنية، د.ب، 1997.
- كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، دار الحرية، بغداد، 1977.
- كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، تر: محمد عبد الكريم، ط2، دار الفارابي، بيروت، 1984.
- لويل توماس، لورنس في بلاد العرب: مشاهدات تاريخية وسياسية، تر: صالح عثمان، دار الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2009.
- لويل توماس، مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب أثناء الثورة العربية الكبرى 1916-1918، تر: أحمد ايبش، دار الكتب الوطنية، أبوظبي، 2013.
- لويل توماس، لورانس في بلاد العرب، تر: عادل زعيتر، مكتبة المعارف، بيروت، 1968.
- مالكولم براون، لورنس العرب في الحرب والسلام: مختارات من كتاباته العسكرية، تر: هيثم فرحت، دار الساقى، ط1، لندن، 2022.
- محمد أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى: تاريخها وأسرارها، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1934.
- محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة: تاريخ ومذكرات، المكتبة العصرية، صيدا، 1950.
- محمد فاروق الخالدي، المؤامرة الكبرى على بلاد الشام، دار الراوي للنشر والتوزيع، ط1، السعودية، 2000.
- محمد كرد علي، المذكرات، مطبعة الترقى، دمشق، 1948.
- محسن محمد المتولي العربي، نوري باشا السعيد من البداية إلى النهاية، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2005.

قائمة المصادر والمراجع

- محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية 1299-1923، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989.
- مختارات من رسائل لورانس، تر: الدكتور عبد المنعم الناصر، دار الرائد العربي، بيروت، 1983.
- مصطفى الشهابي، القومية العربية: تاريخها، قوامها ومراميها، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1961.
- نزيه مؤيد العظمة، رحلة في العربية السعيدة من مصر إلى صنعاء، منشورات المدينة، ط2، بيروت، 1986.
- نزيه مؤيد العظمة، مذكرات، منشورات المدينة، ط2، بيروت، 1986.
- هشام عبود الموسوي، موسوعة الحضارات القديمة، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2013.
- هنري لورنس، ثورة في الصحراء، تر: عبد الله الجندي، دار اليقظة، دمشق، 1985.
- هنري لورنس، اللعبة الكبرى: الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية، تر: سحر توما، دار الفارابي، بيروت، 2012.
- يوسف الحكيم، بيروت وسوريا، دار النهار، بيروت، 1966.
- يوسف الحكيم، سوريا والعهد الفيصلي، دار النهار، بيروت، 1986.
- يعقوب يوسف كورية، الإنجليز في حياة فيصل الأول، دار الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1998.
- أنتوني ناتنغ ولويل توماس، لورنس العرب: لغز الجزيرة العربية، مكتبة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1999.

قائمة المصادر والمراجع

- حسام علي محسن المدامغة، لورنس والقضية العربية (1888-1935)، دار الأوائل للنشر والتوزيع، ط2، دمشق، 2005.
- جوزيف حجار، سوريا بلاد الشام (تجزئة وطن)، دار طلاس، ط1، 1999.
- حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، تر: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1990.
- خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق 1918-1920، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1971.
- سمير أمين، الأمة العربية، تر: محمد نوفل، ج1، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 1988.
- صبحي العمري، لورنس: الحقيقة والأكذوبة، رياض الريس للكتب والنشر، ط1، لندن، 1991.
- عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008.
- عبد الفتاح أبو عليّة، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1979.
- عبد الرحمن برج، عزيز علي المصري والشركة العربية 1908-1916، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية للأهرام، القاهرة، 1997.
- علي بن عبد الرحمن البازعي، الموسوعة العربية العالمية، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999.
- فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق، 1995.
- مايكل آشور، لورانس ملك العرب غير المتوج، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1963.

نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب 1900-1930، المؤسسة العربية، بيروت، 1984.

نجدة فتحي صفوة، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب، منشورات المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1969.

وليد خالدي، قبل الشتات: التاريخ الفلسطيني قبل عام 1948، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1986.

بسام العسلي، الماريشال فرديناند فوش (1851-1929)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983.

زهدي الفاتح، لورنس العرب على خطى هرتزل: تقارير لورنس السرية، دار النفائس، بيروت، 1971.

فتحي صفوة نجدي، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مج2، بيروت، 1996.

ثانياً: الرسائل والأطاريح العلمية.

— سعاد رؤوف شير محمد، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1945، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة بغداد، العراق، 1985.

ثالثاً: المقالات العلمية.

— بصال مالية، "قراءة في طبوغرافية وديمغرافية الهلال الخصيب إلى غاية نهاية الألف الأول قبل الميلاد"، مجلة دفاتر البحوث العلمية، مج5، ع2، 2017.

— رمضان أحمد العمر، "محطات من تاريخ سورية في ظل الهيمنة الفرنسية 1920-1946: دراسة تحليلية تاريخية"، مجلة الضاد الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، دار البيان العربي، ع7، القاهرة، 2025.

— زكريا الغول، "اتفاقية سايكس بيكو: ظروف وتداعيات"، مجلة أوراق ثقافية، 2023/10/26.

قائمة المصادر والمراجع

- طارق عبد الفتاح الجعبري وآخرون، "قراءة في الرسائل الجانبية لمراسلات حسين-مكماهون"، مجلة دراسات بيت المقدس، مج18، ع1.
- عبد الغني بن علي، "مشكلة تحديد الهوية في الشرق الأوسط بين الديني والمدني عند المستشرق برنارد لويس"، مجلة ألف: اللغة والإعلام والمجتمع، مج11، ع5-2، 2024.
- عبد الودود، "لورانس العرب"، مجلة الوعي، ع246، وزارة الإعلام اللبنانية، 2007.
- لخضر سعيداني، "المشرق العربي والمخططات الاستعمارية: من سايكس بيكو إلى سان ريمو"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، جامعة تيارت، مج1، ع1، 2018.
- لونيش دليلا وطرشون نادية، "تطور الصراع الفرنسي البريطاني على المشرق العربي من خلال الاتفاقيات المبرمة أثناء الحرب العالمية الأولى (سايكس بيكو 1916 أنموذجاً)"، مجلة دراسات وأبحاث، مج13، ع1، 2021.
- منصور عبد السميع منصور، "السياسة البريطانية في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى"، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، مج17، ع64، 2006.

رابعاً: المراجع الإلكترونية.

- عبد الودود، "لورانس العرب"، مجلة الوعي، ع246، وزارة الإعلام اللبنانية، 2007. متوفر على <https://alwaie.muslimworld.today/contact> :
- زكريا الغول، "اتفاقية سايكس بيكو: ظروف وتداعيات"، مجلة أوراق ثقافية، 2023/10/26. متوفر على <https://www.awraqthaqafya.com/2706/> :

خامساً: المراجع الأجنبية.

- James Breasted, Ancient Times (History of the Early World), 2nd Edition, GINN AND COMPANY, Boston, 1947.

الفهرس

1	مقدمة.....
7	الفصل الاول: الإطار المفاهيمي والتاريخي للهلال الخصيب
9	المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والجغرافي للهلال الخصيب
9	المطلب الأول: ظهور مصطلح الهلال الخصيب وحدوده الجغرافية
11	المطلب الثاني: الخصائص الاستراتيجية والسياسية للمنطقة قبيل الحرب العالمية الأولى
15	المبحث الثاني: لورانس العرب وظروف ظهوره في الهلال الخصيب
15	المطلب الأول: التعريف بتوماس إدوارد لورانس
20	المطلب الثاني: دوره في الثورة العربية الكبرى وصلته بالقيادة العربية والبريطانية
26	الفصل الثاني: صورة الهلال الخصيب في مذكرات لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى
28	المبحث الأول: البنية السياسية والاجتماعية للمنطقة في ضوء المذكرات
28	المطلب الأول: أوضاع بلاد الشام والعراق كما وصفها لورانس
32	المطلب الثاني: العلاقة بين القبائل العربية والسلطة العثمانية
36	المبحث الثاني: الثورة العربية الكبرى وانعكاسها على جغرافية الهلال الخصيب
36	المطلب الأول: مسار العمليات العسكرية في الحجاز وبلاد الشام
40	المطلب الثاني: أثر الثورة على موازين القوى داخل المنطقة
46	الفصل الثالث: إعادة تشكيل الهلال الخصيب بعد الحرب في ضوء شهادة لورانس
48	المبحث الأول: تفكك السلطة العثمانية وصعود المشروع العربي

المطلب الأول: سقوط دمشق والتحولات السياسية في بلاد الشام	48
المطلب الثاني: مشروع الدولة العربية بين الواقع والطموح	53
المبحث الثاني: التقسيمات الاستعمارية وانعكاسها على وحدة الهلال الخصيب	57
المطلب الأول: اتفاقية سايكس-بيكو وآثارها على الخريطة السياسية	57
المطلب الثاني: الانتداب الأوروبي وبداية تشكل الكيانات القطرية	60
خاتمة	66
الملاحق	69
قائمة المصادر والمراجع	76
الفهرس	84

ملخص الدراسة:

يتناول هذا البحث دور توماس إدوارد لورانس في منطقة الهلال الخصيب خلال الحرب العالمية الأولى، والصورة التي رسمها لهذه المنطقة في مذكراته ورسائله، ويهدف إلى تحليل ظروف نشأته وتكوينه، ودوره في الثورة العربية الكبرى، وعلاقته المزدوجة بالأمير فيصل والقيادة البريطانية، وكذلك الكشف عن صورة البنية السياسية والاجتماعية للهلال الخصيب كما وردت في كتابيه "أعمدة الحكمة السبعة" و"ثورة في الصحراء"، كما يتناول البحث التناقض بين وعود لورانس للعرب والاتفاقيات الاستعمارية السرية كسايكس-بيكو، وأثر التقسيمات الاستعمارية على وحدة المنطقة.

ويخلص البحث إلى أن مذكرات لورانس وثيقة مهمة لفهم تحولات المشرق العربي، لكنها تحتاج إلى قراءة نقدية، وأن لورانس لم يكن بطلاً أسطورياً ولا خائناً مزدوجاً، بل ضابط استخبارات استثمرته بريطانيا لتفكيك الدولة العثمانية، ورومانسياً آمن بالقضية العربية لكنه اصطدم بالواقع الاستعماري.

الكلمات المفتاحية: لورانس، الهلال الخصيب، الثورة العربية الكبرى، سايكس-بيكو.

Abstract:

This research examines T.E. Lawrence's role in the Fertile Crescent during WWI and his portrayal of the region in his memoirs. It analyzes his background, his role in the Great Arab Revolt, his dual relationship with Prince Faisal and British leadership, and the image of the region's political and social structure in "Seven Pillars of Wisdom" and "Revolt in the Desert." It also addresses the contradiction between his promises to Arabs and secret colonial agreements like Sykes-Picot, and the impact of colonial divisions on the region's unity.

The research concludes that Lawrence's memoirs are important but require critical reading, and that Lawrence was neither a legendary hero nor a double traitor, but an intelligence officer exploited by Britain to dismantle the Ottoman state, and a romantic who believed in the Arab cause but collided with colonial reality.

Keywords: Lawrence, Fertile Crescent, Arab Revolt, Sykes-Picot.